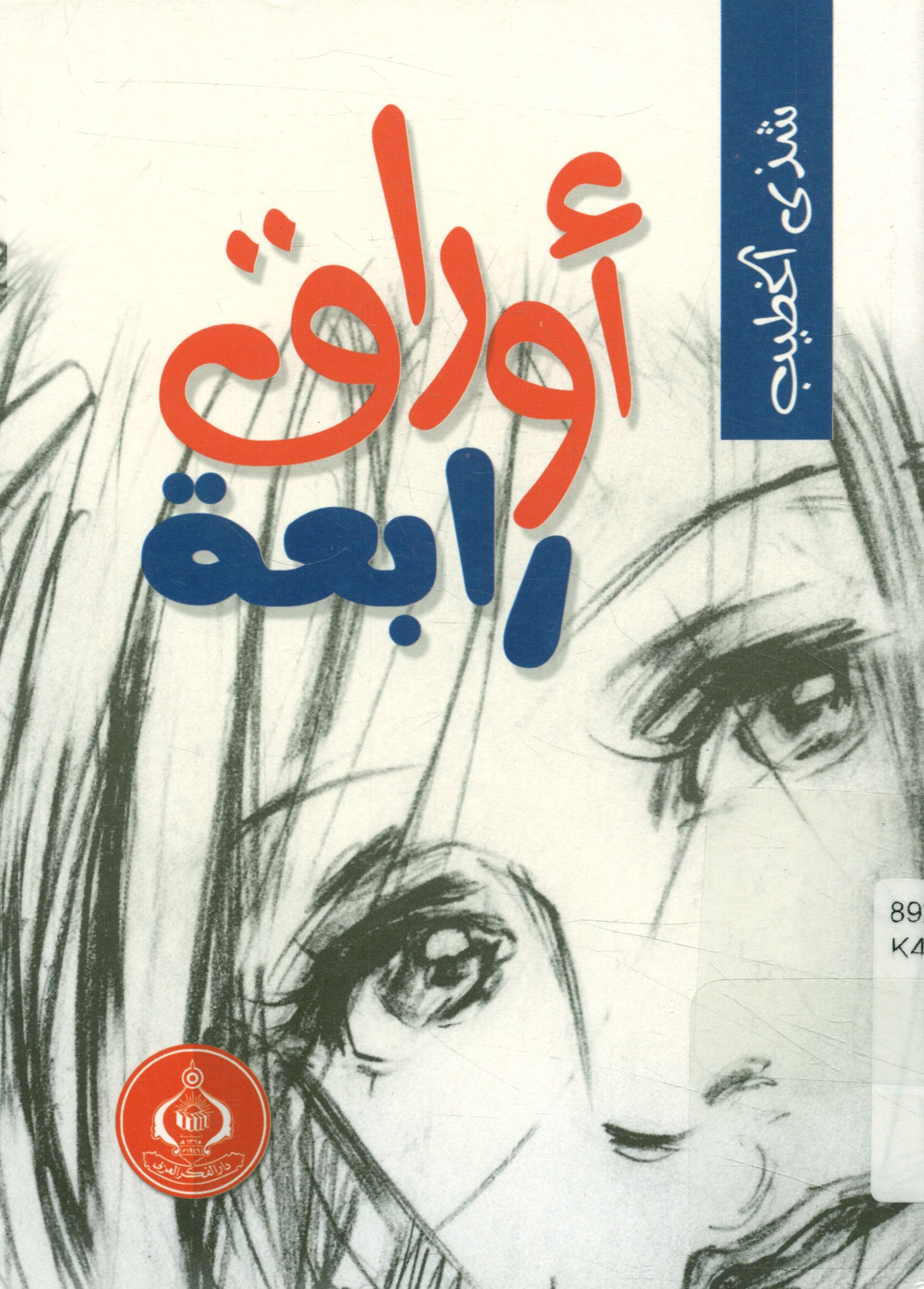


شذى الخطيب
أوراق رابعة
دار الفكر العربي

أوراق رابعة

شذى الخطيب

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٢٧٥٢٧٩٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥

٦ أشارع جواد حسني - ت: ٢٣٩٣٠١٦٧

www.darelfikrelarabi.com

info@darelfikrelarabi.com

٨١٣,٩ شذى الخطيب.
ش ذ أ و أوراق رابعة/ شـذى الخطيب.- القاهرة: دار الفكرى، ١٤٣٤ هـ = ٢٠١٣م

١٤٣ ص؛ ٢٠سم.

تدمك: ٦-٢٨٥٣-١٠- ٩٧٧-٩٧٨.

١- القصص العربية. - مصر. أ-العنوان.

جمع إلكترونى وطباعة



بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

جلس القرفصاء وحيدا يدخن لفافة تبغ ويمضغ بعضًا من القات الناشف في ساعة متأخرة من الليل، بعد أن خلد أهل بيته للنوم في بيت متواضع من ثلاث غرف جلس في واحدة منهن على فراش إسفنجي مهترئ القماش. أخذ يدخن سيكارة تلو الأخرى إلى أن حبس تنفسه فأصدر حشرجة من صدره الضعيف. مال برأسه إلى الخلف وبعين شبه مغمضة بحث عن بعض شجيرات القات، فلم يجد إلا بضع ورقات تفتت بين يديه، فتنهد بغضب وأطفأ سيكارته وقام بصعوبة فحكم معوزه وارتدى خفه وخرج من بيته. أغلق باب بيته المتهالك بقوة فوصل صداه إلى النوافذ المجاورة فخرجت بضع رءوس تستطلع، فرأت خطواته المترنحة تسير مبتعدة عن بيته في شوارع ضيقة مظلمة باستثناء بعض الأضواء الخافتة الساقطة من بعض النوافذ، فتضيء له طريقه في عتمة تزداد كلما تقدمت خطواته إلى جهته.

كان كهلا متوسط الطول هزيل البنية خفيف الشعر بارز العظام تحت ثياب عتيقة.

توقف عن السير أمام بيت لا يختلف كثيرا عن بيته أو بقية البيوت المتهالكة فطرق الباب بشدة وانتظر إلى أن سمع صوتا يسأله: من؟

- أنا عبد الفتاح.

فتح له الباب: ماذا يا عبد الفتاح. ما الذي تريده في هذه الساعة؟

- أريد حزمة قات.

- أتأتني في الثانية عشرة صباحا تسألني حزمة قات؟

- لم أتناوله جيدا منذ يومين.

- وما شأني أنا؟

- قلت أبتاع منك حزمة أسدد لك قيمتها غدا.

- لن أعطيك شيئا قبل أن تدفع دينك لي وقيمة حزمة اليوم.

- أشعر بصداع أريد منك حزمة بسيطة وضعها على الحساب.

- لا عد إلى بيتك وإن كان معك مال اذهب وأطعم أطفالك.

- أعدك غدًا مساء أعطيك ما تسألني.

- لا ارجع إلى بيتك واسأل أهلك ما ينقصهم.

فتقدم عبد الفتاح ليدخل مع صالح بيته فدفعه صالح للخلف قائلا:

- انصرف من هنا.

- تراجع عبد الفتاح قائلا بغضب: أتحتقرني؟!

جفل صالح قائلا: استعذ بالله من الشيطان... يا رجل... اذهب الآن.

- لن أذهب حتى تعطيني حزمة قات.

- لن أعطيك.

- بل ستعطيني.

- هل تأمرني؟

- نعم

ضحك صالح قائلا: يبدو أنك جننت يا عبد الفتاح والآن اذهب إلى النوم. وهمّ صالح بإغلاق باب بيته. قفز إليه عبد الفتاح وسحبه إليه قائلا: لن أدعك حتى تجلب لي حزمة قات.

وبقوة أمسك صالح يد عبد الفتاح وأبعدها عنه فسقط عبد الفتاح أرضا وقال: ما أوقحك يا رجل! ثم استدار ليدخل بيته. فاستل عبد الفتاح خنجره من غمده وأصاب صالحا بطعنة في ظهره. فخرجت من صالح صيحة أيقظت أهل بيته وجيرانه. فاضطرب الجميع خوفا وتدافعوا فوجدوا صالحا ملقىً على الأرض جثة هامدة مضرمة بالدماء وعبد الفتاح ينظر إليه بذهول وخنجره بيده تتقاطر منه الدماء. جفل عبد الفتاح وأدرك مصيبته. فرمى الخنجر وهمَّ بالفرار. إلا أن الناس أحاطوا به وقبضوا عليه. ولم يمض الوقت الكثير حتى جاءت الشرطة وسيق عبد الفتاح إلى السجن.

***

رابعة استيقظي. رابعة أخبرتني أن أوقظك في السابعة معك اختبار. رابعة ألا تسمعين؟

رفعت رابعة يدها تشير إليها بأنها استيقظت. حسنا. هل أذهب أم ستعودين للنوم. وبكسل أزاحت عنها الدثار وأبعدت شعرها الأسود الغزير عن وجهها الجميل الأبيض المكتنز وجسدها النضر المتناسق الملفوف كشرنقة فراشة يافعة بطور النمو. وبكسل أشارت لخادمتها بأن تذهب. قامت كعادتها

إلى المرآة فتأملت وجهها وعينيها الناعستين، رغم التعب إلا أن جمال عينيها بقي جذابا بأهدابها السوداء الكثيفة وحاجبيها العريضين. لملمت شعرها بقباضة شعر وذهبت لتغتسل، ثم خرجت وارتدت ملابسها وحملت بيدها عباءتها وكتبها، ثم نزلت إلى الطابق الأسفل. دخلت المطبخ فوجدت الخادمة الحبشية "إيفا" صنعت لها فطورا من الفاصوليا وبعض البيض وشاي بالحليب. أخذت قطعة من الخبز الملوح وغمزت به قليلا من الفاصوليا والبيض وبسرعة جرعت الشاي. ثم قامت وخرجت إلى مغسلة تجاور حمام الضيوف فغسلت فمها وتمضمضت وأخرجت عطرها من حقيبتها فتعطرت وأرجعته لتخرج مرطب شفاه لمعت به شفتيها. ارتدت عباءتها، ورتبت غطاء شعرها الحريري الأسود. مشت في البهو الواسع وفتحت الباب الخشبي لمدخل البيت ونزلت بضع درجات إلى ساحته الخارجية تحمل مفتاح سيارتها، وبالتحكم من بعد فتحت قفل سيارتها المرسيدس الفضية فشرعت بابها راكبة وحركت سيارتها فانعطفت إلى الخلف، ففتح لها الحارس البوابة الحديدية للشارع الرئيسي فقادت سيارتها إلى شارع حدة ومنه إلى شارع الستين.

وصلت إلى جامعة العلوم والتكنولوجيا، أوقفت سيارتها في أحد المواقف، ثم دخلت مباشرة إلى قاعة المحاضرات قبل دخول أستاذ المادة بدقيقة واحدة فتنفست الصعداء. وزع لهم أوراق الاختبار فأخذت تجيب عليها حتى انقضى الوقت. قامت وسلمت ورقة الاختبار وخرجت. جلست وحيدة بعيدة عن الجميع. أخرجت جهازها النقال تحاول الاتصال بأحدهم بلا جدوى، شعرت بالقلق ونظرت إلى ساعة معصمها، فجمعت كتبها ورتبت عباءتها، ووضعت حبل حقيبتها على كتفها ومشت صامتة. ينظر الآخرون لها ولا تنظر إليهم. دخلت قاعة المحاضرة وجلست في منتصفها. كاد النوم يغلبها فحاولت

مقاومة النعاس فأخرجت جهازها النقال وأخذت باللعب على إحدى الألعاب وهي تنظر من طرف عينيها إلى شرح أستاذها. وعين هنا وعين هناك وأذن تكاد تكون صماء نظر إليها أستاذ المادة فارتبكت قليلا ثم وضعت هاتفها جانبا. مضى الوقت وبكسل قامت ومشت وكما دخلت خرجت. جلست برفقة بعض زملائها تحاول أن تلهي وقتها إلى أن تحين المحاضرة القادمة. رفعت هاتفها مرة أخرى لتتصل وأيضا لا جواب. حضرت محاضرتين ثم اتجهت نحو سيارتها. جلست وراء المقود ورمت بحاجياتها جانبا. قامت بالاتصال مجددا على ذات الرقم وأيضا لا جواب وبضجر ألقت هاتفها جانبا. قادت سيارتها. ومضت نصف ساعة حتى وصلت إلى شارع حدة واتخذت منعطفا جانبيا.

***

صنعاء، من لم يزر هذه العاصمة فقد فاته أقدم المدن تاريخا وحضارة وأكثرها محافظة على التراث. كانت الساعة تشير نحو الثانية ظهرا حينما عادت أوقفت سيارتها في ساحة البيت وترجلت منها وصعدت درجات البيت القصيرة وبمفتاح يدها فتحت الباب. دخلت ورأت "إيفا" تنظف القات المتراكم أمامها وكانت تلك عادتها اليومية في هذه الساعة. همت بصعود السلم فلمحت عيني إيفا تكلمها فتجاهلتها وطلعت إلى الطابق الأعلى فدخلت غرفتها ورمت بحقيبتها وكتبها جانبا وخلعت عباءتها ووضعتها على المشجب وفكت رباط شعرها وألقت بجسدها المتعب على فراشها. افترش شعرها الغزير حول وسادتها وغطت جزءًا من فراشها بجسدها وأخذت تتأمل السقف بنظرة فراغ فتنهدت بعمق وأغمضت عينيها. تقلبت على فراشها فأخذت جهازها النقال وأعادت الاتصال بذات الرقم فوجدته مغلقا. فسألت بصوت منخفض: أين ذهبتَ؟

رابعة ابنة العشرين من عائلة وجيه الدين التي تعتبر من أشرف عائلات صنعاء خلقا ومالا ونسبا. فجذورها مرتبطة ببيت الإمام حميد الدين إمام اليمن قبل قيام ثورة اليمن ضده في عام ١٩٦٢. كادت تغمض عينيها عندما دخلت إيفا تسألها: ألن تتناولي الغداء؟

فنظرت إليها قائلة: وماذا طبختي؟

- صانونة سمك مع خبز ملوح.

- لِمَ لم تعملي أرز أبيض؟ أكلت الملوح صباحا!

- والدتك هي التي خبزت وتعلمين أنها تهوى أن تخبز باستمرار.

- حسنا لا بأس وأين أمي؟

- ذهبت إلى بيت المنصوري.

- المنصوري! إنني أتصل على شيماء منذ الصباح فهي لم تحضر امتحان اليوم وكنت أريد أن أسألها أمرا. حسنا ما الذي جعل والدتي تذهب إليهم؟

- لقد استنجدوا بها.

فتعجبت رابعة قائلة: استنجدوا! كيف؟

- كل الذي عرفته أن والدهم دخل السجن بسبب مشاجرة.

- حقا يا إلهي، ومن أخبر أمي؟

- اتصلت أمهم بوالدتك.

- وماذا ستفعل أمي لهم؟!!

- لا أعلم

أصبحت رابعة متحيرة ماذا تفعل؟ هل تذهب لترى شيماء أم تبقى تنتظر أمها؟ وكاد الجوع يشعرها بالدوار فنظرت إلى خادمتها التي ما زالت واقفة: سأنزل لآكل.

كانت رابعة وحيدة والديها، تزوج والدها بأمها عندما كان يعمل في السلك الدبلوماسي، وكانت والدتها تعمل أيضا في وزارة الخارجية، فتركت العمل ورافقت زوجها. لم ينجبا غيرها لما كان يعانيه والدها من ضعف في الإنجاب.توفي والدها بحادث سيارة وهي في الثانية عشرة. وبقيت الابنة الوحيدة لوالدتها. لم تتزوج والدتها وقضت وقتها بعدما عادت للعمل في الخارجية بالعمل في السلك الدبلوماسي من دولة إلى أخرى تصطحب معها ابنتها رابعة مما أتاح لرابعة فرصًا غنية بالسفر والاحتكاك. استقالت والدتها من العمل الدبلوماسي عندما أكملت رابعة عامها السادس عشر، وعادت إلى صنعاء لتستقر في بيتها الذي ورثت ابنتها نصفه عن أبيها بالإضافة إلى حصتها من زوجها والباقي أصبح ملكا لأعمام رابعة بالإضافة إلى شراكة في مشفى اليمن الخاص مع إخوة زوجها.إضافة إلى معهد الرواد للغات الذي أسسه والدها عبد الله وجيه الدين من ماله الخاص.

التحقت رابعة بالجامعة قبل سنتين رغم رغبتها بالدراسة في الخارج، ولكن تراجعت عن فكرتها لرفض والدتها، فقررت الدراسة في جامعة العلوم والتكنولوجيا قسم التحاليل الطبية رغم أن والدتها أرادت أن تدرس الطب، فأبت إما أن تدرس الطب خارج اليمن وإما أن تتخصص في أي مجال طبي آخر. فأوقعت والدتها في اختيار صعب بين أن تترك ابنتها الوحيدة تغيب عنها فترات

طويلة وبين أن تجعلها تبقى وتدرس ما يحلو لها. وأخيرا استسلمت والدتها وأعطتها حرية اختيار تخصصها الدراسي. وبقيت في اليمن وعوضت النفقات بالسفر إلى الخارج كلما سنحت لها الفرصة.

كان بيتهم من طابقين، فمن الخارج يبدو كأي بيت يمني في صنعاء ذا طراز طيني اللون من الخارج والنوافذ القمرية المحدبة المدهونة بالألوان المختلفة. نزلت إلى الطابق الأرضي وقطعت الصالة الواسعة ثم اتجهت إلى جانب المطبخ إلى غرفة الطعام المطلة على المسبح. كانت غرفة واسعة بها طاولة طعام تتسع لعشرة أشخاص، تتدلى من سقفها الثريا الكريستالية. فأضاءت مصابيحها لتنير الغرفة بإضاءة مبهرة انعكست على الأواني الفضية والكريستالية الموضوعة على مكتبة أدراج لاصقة في الجدار. سحبت أحد الكراسي وجلست وجاءت الخادمة وفرشت أمامها الطعام. أخذت تلملم شعرها إلى الخلف. فقالت لها خادمتها: ألا تبطلي هذه العادة؟

- أية عادة؟

- أن تلعبي بشعرك أمام الأكل.

- وماذا يعنيك بذلك؟

- الطعام قد يأكله أحد بعدك وقد يجد شعرك.

زمت شفتيها قائلة: حسنا.

بدأت تأكل، ومال الوقت إلى الغروب فأظلمت الأجواء، وفجأة انقطعت الكهرباء، فأكملت بقية طعامها، ثم نظرت نحو الشمعدان الفضي والشموع

التي عليه، فشردت تتأمله، فتنهدت ثم ألقت بملعقتها جانبا وأبعدت صحنها وأخذت محرمة ورقية ومسحت يدها وشفتيها.فقامت واقتربت من الشمعدان وأخذت تبحث في الأدراج عن أعواد ثقاب فلم تعثر عليها. فصاحت: إيفا.

جاءت إيفا فزعة إليها: لِمَ تصرخين؟

- أريد كبريتا.

- لِمَ؟ سأقوم بتشغيل المولد الكهربائي.

- حسنا أولا اجلبي لي عود ثقاب.

هزت رأسها بعدما حملت معها بعض الأطباق ثم عادت وأعطتها علبة أعواد الثقاب، ورجعت ترفع بقية الأطباق. أشعلت رابعة عود الثقاب وبدأت بإشعال الشموع الحمراء فتوهجت الغرفة وبدت وكأنها غرفة من العصور القديمة فخطر على خاطرها قصة البؤساء وقصة جان فلجان والشمعدان الفضي.

أخذت الشمعدان معها إلى غرفة الجلوس فوضعته جانبا وما إن جلست حتى أضيء البيت بالكهرباء فقامت لتطفئ الأنوار وأبقت الشمعدان مضاء، فأخذت جهازها المحمول، وعلى مكبر الصوت فتحت أغاني إنكليزية وأخذت تدندن معها وتسرح بعيدا وتفكر بشياء ماذا حصل في بيتهم وأمها لم تعد إلى الآن. كان المفروض أن تتصل بوالدتها لتستعلم منها. عدلت من جلستها وحملت هاتفها لتتصل بوالدتها التي أجابتها بسؤال: أين أنت؟

- أنا في البيت ماذا هناك؟

- ألم تخبرك إيفا؟

- أخبرتني.

- حسنا هل ستأتي؟

- لا أدري.

- إنها صديقتك وقريبتك.

- صحيح.

- إذًا؟

- أشعر بتعب.

- تعالي أنتظرك.

- كيف حصل ذلك؟

- مشاجرة بشأن القات.

- لعنه الله.

أغلقت هاتفها ونظرت إلى ساعتها التي تجاوزت السادسة مساء. أحبت شيماء كأي إنسان تعرفه. لم تتخذ يوما صديقًا مقربًا، فكانت دائما تعتبر نفسها الأفضل في كل شيء ويحوم حولها المصلحيون من الناس الذين يبغون منها مالا أو شهرة، وكان يشعرها ذلك بالغنج رغم معرفتها بنفسياتهم جيدا فلم تهتم. فشيماء الوحيدة التي تشعر أنها تحبها من دون أن تسألها شيئا أو تريد الوصول إلى شيء في علاقتها معها فكثيرا ما اتصلت عليها شيماء ورافقتها في أوقات شعرت أنها وحيدة أو أثناء مشاكل تتعرض لها. فشيماء اعتبرتها أختا لها. وعليها

الآن من المفترض أن تقوم مسرعة إليها لتقف معها في محنتها ولكنها تكره منظر الحزن والأسى. شعرت أن من الغباء أن تبقى جالسة في مكانها. فطلعت إلى غرفتها، واغتسلت وارتدت ملابسها وأخذت تعطر جسدها. كانت غرفتها واسعة مدهونة باللون السماوي مزينة بستارة مشجرة تنعكس على لون فراشها الخشبي المائل إلى الخضرة. تزين سقفها مصابيح من تصميم حديث أضافت على الغرفة إضاءات متفاوتة على حسب رغبتها. وطاولة زينة ودولاب من ذات السرير. ومكتب صغير يقع يمين مدخل باب غرفتها اقتربت منه وسحبت درجا وأخرجت منه دفترا عريضا وضعته على المكتب وفتحته وأخذت تقلب أوراقه، ثم أخذت قلما وخطت بيدها تاريخ اليوم ثم أغلقته وأرجعته وخرجت بعدما أغلقت غرفتها بالمفتاح ونزلت.

همت لتخرج من البيت لتستقل سيارتها ففتح باب البيت بالمفتاح فتوجست ثم استرخت ونظرت إلى "عقبة" الذي أغلق الباب خلفه وبقي واقفا فمالت جانبا لتتيح له التقدم وتأخذ طريقها. فمدت يدها لتفتح الباب فقبض على ذراعها وبصوت منخفض سائلا: إلى أين؟

الفصل الثاني

تنهدت بقوة ونظرت إليه وأدركت رغبته باستفزازها فحبست غضبها لكي لا تملي عليه رغبته فابتسمت ببراءة قائلة: لقد سجن والد شيماء.

- عبس قائلا وهو ما زال ممسكا بها: سجن والدها؟!

حاولت شد ذراعها من قبضته بلطف فلم تستطع فنظر إليها قائلا: وأنت ماذا ستفعلين لشيماء ووالدها هل عينوك محامية له؟

- عقبة بالله عليك اتركني، أمي تريد مني الذهاب إليهم.

- هل يعقل أن تطلب أمك ذلك؟! ألا تخاف عليك؟

- هذا لا يعنيك.

- حسنا سآخذك أنا.

- لا سأذهب بنفسي إليهم.

- انظري كم الساعة وهل آمن عليك وأنت تسيرين في الشارع وحيدة إلى مناطق موحشة؟

- أنا حرة.

- لا لست حرة يا عزيزتي.

- من أنت؟

-نظر إليها وقرب وجهه إلى وجهها قائلا: من أنا!! أتوجهين هذا السؤال إليّ؟ ألا تعرفين من أنا بالنسبة لك؟

قالت: لا لم أتشرف بعد من أنت؟

جفل وأرخى يده منها فسحبت يدها وهمّت بالخروج فلحقها وقبض عليها مرة أخرى قائلا: لا لن أجعلك تذهبين من دون رفقة. سآخذك في سيارتي.

- لا أريد.

- اركبي.

- قلت لك لا أريد.

- قسما لن أجعلك تخرجين.

- عقبة!!

- نعم يا روح عقبة.

- اتركني وشأني.

- كيف لي أن أترك حبيبتي وخطيبتي تذهب؟

- لست خطيبتك.

- عما قريب ستكونين لي.

- عقبة يا ابن عمي. ولم تكمل كلامها حتى رن هاتفها فأجابت: نعم يا أمي بعد لم أخرج من البيت. حسنًا أنت قادمة. إذًا غدًا سأزورها. سأنتظرك. نظرت إليه قائلة: والآن هل يعجبك ذلك؟

فابتسم بتهكم قائلا: يعجبني كثيرا.

مضت وتركته وترقّت السلالم إلى غرفتها وأغلقت بابها بالمفتاح. بقى جالسا يقطف بعض القات ويمضغه وهو يتابع نشرة الأخبار حتى أغلق التلفاز وقام نحو غرفته في الطابق الأرضي. كان أطول من المتوسط، شديد الاهتمام ببنيته التي اكتسبها من ممارسته للسباحة في الحديدة على البحر الأحمر، فهو بطل سباحة شارك ببعض البطولات المحلية والدولية، واهتم بها أكثر أثناء إقامته في الولايات المتحدة كهواية له، وخاصة في مجال الغوص، أنيق، جذاب الملامح والنظرات، مربع الوجه أنفه شامخ وشعره حريري من نعومته يفرق من النصف في أعلى رأسه فكثيرًا ما يتركه ينساب إلى رقبته وأحيانا يحلقه فيصبح أصلع ويطيل لحيته وأحيانا يقصرها فقط ويكتفي بشارب. كان يرى أنه جذاب بكل الحالات من إعجابه بنفسه ومن نظرات الفتيات له منذ كان طالبا في المدرسة فاعتنى بنفسه ليصبح أكثر جاذبية بأناقته وبنيته. قضى سنواته الأولى في الحديدة ثم جاء إلى صنعاء منذ أشهر واستقر فيها وعمل في مشفى اليمن الخاص الذي تملكه العائلة وأشرف عليه بالإضافة إلى متابعته شركة والده الخاصة في مجال الصيد فأدار فرعها في صنعاء، استقر في بيت عمه بدعوى أن لا يوجد رجل مع أرملة عمه وابنتها واتخذ لنفسه هذه الغرفة الملحقة بحمام خاص، فقد كان البيت ذا تصميم حديث مفروش بأفخر المفروشات السويدية. وكان البيت يمثل جزءًا من أحلامه العريضة.

سافر إلى الولايات المتحدة ودرس الجامعة وتعرف على فتاة أمريكية، تزوجها في سنة دراسته الأولى لعلم الحاسوب. كان قد أسس مكتبًا خاصًا به ودرس وعمل بجهد بالإضافة أن والده أمده بالمال الوفير فعاش بترف وبأمان.

كانت زوجته تدرس معه في ذات الكلية فأجلا الإنجاب حتى يتخرجا من الجامعة. لم يخبر والديه بزواجه إلا بعد مرور سنة. غضب والده منه ولم يكلمه وكانت رابعة في الرابعة عشرة. فكان والده يخطط لمسألة زواجه من رابعة من دون إخباره إلا بعدما يعود من دراسته، ولكنه لم يتوقع أن يتزوج عقبة من أمريكية فهو لم يربيه على ذلك، فلجم غضبه حتى يتسنى لعقبة إكمال دراسته بتفوق وحينها يحين تخرجه سيجد وسيلة تجبره على تطليق زوجته. لاعتبارها أنها مجرد نزوة سيفيق منها. تخرج عقبة بعد خمسة أعوام. وقد استقر ماديا ونال الجنسية الأمريكية. عاد بعد إنهاء دراسته إلى اليمن مع زوجته رغم ترحابهم بها، إلا أن والده أخذه جانبا وصارحه بأن عليه أن يتزوج من رابعة كزوجة ثانية إن لم ينو تطليق زوجته. فأخبره عقبة أنه لا يستطع الجمع بين زوجتين بحكم جنسيته الأمريكية فغضب والده وأخبره إن لم يطلق زوجته سيكتب كل ما يملكه إلى أخواته البنات. وأنه سيخرج صفر اليدين. غضب عقبة من حديث والده وحز في نفسه أن تذهب أموال والده إلى أخواته الفتيات وأزواجهن. ولكن حبه لزوجته لم يجعله يهتم فقد بنى نفسه بنفسه. رغم أنه بقي في حالة صراع فترة من الوقت أخفاها عن الجميع إلا أنه ظل متمسكا بكلمته. وعاد إلى أمريكا يسأل زوجته الإنجاب فرفضت متعللة أن الوقت ما زال باكرا على ذلك رغم مرور ست سنوات على زواجهما. فأخذ بإقناعها ولكنها أبت بإصرار غريب حتى أدرك أنها لا تحبه حقيقة ربما لديها صديق في مكان ما. فإن كانت تحبه لا تتوفت للإنجاب منه. فتشابكت أموره وتصارعت ما بين حبه لها وما بين عدم رغبتها بالإنجاب وبين والده وغضبه وحرمانه من إرثه إن لم يتزوج رابعة. ومما زاد الضغط عليه الخسارة المالية التي تعرضت لها شركته. فعزم أخيرا على تطليق زوجته. ولكن

رفضت الطلاق إلا بعد تسوية مادية كبيرة دفعها لها بعدما باع شركته وكتب لها البيت الذي يعشيان فيه باسمها. لم يهمه ما خسره لأنه يعلم أنه سيربح أضعافًا مضاعفة من أبيه ومن ورثة عمه. فما إن عاد إلى اليمن حتى سجل له أبوه وعمه كل ما ورثاه من أخيهما، لكي يتزوج رابعة ويحصل على بقية تركتها، وكان هذا شرطه فتنازل عمه عن حقه لابن أخيه وتنازل والده له. بشرط أن يحصل على الورثة كلها ولا يبقي لرابعة أو لأمها شيئا. وذلك يعود إلى حقد دفين يضمرونه لوالدة رابعة رقية عبد الخالق فالعائلة لم تكن راضية عن زواج ابنهم عبد الله من رقية، فهو تزوجها عن حب، وتحدى رضا والديه مما سبب نوعا من الحزن للعائلة بالإضافة أنهم يعتبرون أن عائلة عبد الخالق أقل منهم مستوى وشرفا فلا يرغبون أن تكون رقية ابنة العائلة البسيطة ترتفع إلى مستواهم وترى نفسها عليهم. خاصة بحكم دراستها وعملها أصبحت تحتل مركزا مرموقا مما زاد من غيظهم وحسدهم فأرادوا الانتقام منها وتحديدا لأنهما دخلا السجن بسببها. حيث تعدى إخوتها عليهما مطالبين بالإرث فاحتدم الخلاف بينهم إلى مشاجرة أدخلت والد عقبة وأخيه السجن بضعة أشهر. وانتقاما من أم رابعة وإخوتها قررا أن يستوليا على كل إرث أخيهم من ابنته وزوجته. فكانت رابعة الوسيلة وعقبة هو أداة الانتقام.

و في مساء ذلك اليوم بعدما أصبح شريك رابعة ووالدتها في كل ما تملكاه قدم إليهما وكان أول لقاء يجمعهما منذ سنين. فتح باب البيت بمفتاحه الخاص في وقت شارف على العاشرة مساء. ورابعة في غرفتها ووالدتها تتابع التلفاز. جفلت رقية عندما وجدته يدخل إليها بمفتاح خاص لم تعرفه من بادئ الأمر، ثم استرخت بتوجس عندما عرفته وابتسم لها بهدوء، وقبل أن ينبس ببنت شفة

نزلت رابعة من أعلى، فرأته، وكانت ترتدي ثوب نوم قطني عاري الكتفين قصيرا نظر إليها متفرسا في ملامحها فارتعدت ورجعت إلى الوراء. ولكن بقت واقفة أعلى السلم فقالت لها والدتها: إنه عقبة ابن عمك غيري ثيابك وانزلي.

فالتفت إليها عقبة قائلا: بل هناك حديث خاص بيني وبينك هل تسمحين لي؟

أشارت إليه أن يجلس. جلس وأخبرها بهدوء بأنه أصبح شريكها في كل ما يملكاه. لم تصدق رقية ما سمعته منه فكذبته. فأخرج لها الأوراق الموثقة وبيد ترتجف قرأتها. لم تستطع تمالك أعصابها فأخذت الأوراق ورمتها على وجهه قائلة: ما أقبحك أنت ووالدك وعمك.

نظر إليها بهدوء وهو كالبركان. حبس نفسه من الانفجار لكي لا يدمر كل شيء. وفي تلك الأثناء نزلت رابعة فنظر إليها متأملا وبابتسامة جميلة رحبت به. فابتسم لابتسامتها قائلا: كيف حالك يا ابنة عمي؟

- بخير وأنت؟

- أنا بخير طالما أنت كذلك.

- قطعت والدتها حديثهما قائلة لها: رابعة عودي إلى غرفتك.

- لِمَ؟!!

- رابعة عودي.

- ولكن...

فنظر إليها مستنكرا بتهكم: ولِمَ يا زوجة عمي.



- رابعة ارجعي إلى غرفتك.

- حسنا.

ذهبت رابعة فقال: ماذا هناك يا زوجة عمي لِمَ لم تخبري رابعة أنني سأقيم معكما.

صدمت رقية قائلة: وهل تنوي الإقامة معنا؟!

نعم وما الذي لا يجعلني أقيم معكما وخاصة أن زوجة عمي المتوفى وابنتها تعيشان وحيدتين وخاصة أننا سنعلن الخطوبة قريبا.

- خطوبة من؟

- خطوبتي من رابعة.

لم تقو رقية على التحمل فقالت: اصمت واذهب سود الله وجهك أنت وأبيك وعمك.

فابتسم بهدوء وكأنه لا يسمعها: حسنا لأرى البيت.

تركها وأخذ يتنقل في أجزاء البيت. سره ما رآه من تصميم وأثاث، ثم وجد جناحًا مكونًا من غرفتين وملحق بحمام خاص وبه مدخلان أحدهما داخل البيت والآخر إلى خارجه على الحوش حيث يتمكن أصدقاؤه من خلاله زيارته دون الاضطرار للدخول من الباب الرئيسي للبيت. خرج من البيت وجلب حقيبته وعاد إلى غرفته وما زالت رقية تجلس مكانها لهول الصدمة. اقترب منها قائلا: إن بقيتي على وضعك هذا ستبقين كثيرا. فيا زوجة عمي اذهبي إلى النوم فغدًا يوم طويل.

ومن هذا الوقت أصبح يقيم معهما بصفة دائمة. لم يكن يتواجد كثيرا أثناء النهار إلا بعد العشاء وكانت رابعة في سنتها الأخيرة من المدرسة. لم تخبرها والدتها بشيء حتى لا تؤثر على مستقبلها الدراسي. كل الذي أخبرتها أن لا يجوز أن يقيها من دون أن يكون هناك رجل في البيت معهما وخاصة أنها تكبر وطبيعي أن يقيم معهما رجل قريب لهما لرعايتهما. أكملت المدرسة والتحقت بالجامعة. كان يعاملها بلطف وكانت تبدي له بعض اللطف أيضا. تجنب الاحتكاك بها حتى لا يغضبها منه وأن يكسبها في صفه وهي ألهت نفسها بحياتها وبدراستها. إلى أن علمت من والدتها عند التحاقها بالجامعة الحقيقة. فقد لاحظت شرود والدتها الدائم وطريقة تعاملها مع عقبة حيث انتبهت بأن هناك شرخًا في علاقة والدتها مع عقبة. فعرفت الحقيقة.

قررت أن تكاشفه فنزلت وهي ترتدي درعا حريرا " قطعة من القماش من ثلاثة أمتار تخيط من الجانبين مع فتحه لدخول الرأس" فكانت قد تعلمت لبس الدروع من والدتها التي تربت ونشأت في عدن لكن وجود عقبة منعها من ارتداء الدرع من قماش البوال المعروف لأنه يشف الجسد فاكتفت بلبسه حينما تخرج للقاء صديقاتها في المجالس الخاصة حتى لم تستطع أن تلبسه عندما تزورها صديقاتها لكون عقبة تأتيه حالة غريبة، فما إن يعلم بوجود صديقاتها حتى لا يخرج من البيت وكأنه يتصيد لهن. دخلت إليه وهو في المجلس العربي الأرضي المكون من مخدات حريرية مخملية محشوة بالإسفنج بلون الأزرق الغامق والفاتح مع خيوط ذهبية بنية فاخرة. فرأته وحيدا مشغولا بتنظيف بعض شجيرات القات يرتدي معوزا " قطعة قماش قطنية تلف على الخصر طويلة إلى القدم خاصة بالرجل " تحت قميص قطني. فوقفت تضع يدها على خاصرتها قائلة:

عقبة إن كنت تفكر بالزواج مني فهذا حتى في أحلامك لن يتحقق. لم يرد عليها وأخذ يمضغ بعض أوراق القات وينفث دخان من نارجيلته.

- عقبة أنا أكلمك ألا تسمعني؟

أخذ نفسا قويا من نارجيلته وقال: يا ابنة عمي ماذا جرى لك لقد صرعتني بحديثك تعالي وخزني معي ألا تخزنين؟! أعلم أنك تخزنين كل خميس مع صديقاتك، فإما يأتين إليك وإما تذهبين إليهن، فإذًا لا داعي للصراخ وإزعاجي وتعالي واجلسي معي. أخذ يتأملها بنظراته وكأنه يجردها من ملابسها فشعرت وكأنها عارية أمامه فأحرقتها نظراته وارتعشت من الغضب والإثارة التي شعرت بها فتراجعت ومالت سريعا، وأخذت مخدة من مخدات المجلس وقذفته بها فسقطت النرجيلة وتناثرت قطع الفحم التي كادت تحرقه. صرخت: تستحق أكثر من ذلك.

نظر إليها مصدوما يخاطب نفسه: أخاف أشتهي جنونك. وأخذ نفسا عميقا وبقي لا يعرف ماذا يفعل معها هل يصفعها أم يضمها إليه، ففي كلتا الحالتين ستغضب منه فجلس في مكانه يلملم الفحم الذي أحرق البساط وترك آثارًا متفرقة من السواد. ونظر جانبا فرآها غادرت. تنهد وعرف أنها ستكون ندا له وبقي في خاطره تصرفها معه ولم ينسه يوما.

***

جلست إلى مكتبها وفتحت دفترها وبدأت تقلب أوراقه وتقرأ ذكريات خطتها بيدها عن والدها. بدأت الصور تتراءى لها وهم في بريطانيا في حديقة الهايد بارك وقت كان عمرها ستة أعوام، أخذها والدها يوم الأحد إلى الحديقة

لم ترافقهما والدتها، أطعما البط وركبا القارب بعدما تناولا الغداء ثم ذهب بها إلى منطقة البي كديلي لمشاهدة فيلم للرسوم المتحركة. وكانت تلك عادته كل أحد. أخذت تقلب أوراق دفترها وتتأمل صورة والدها المحبوسة داخل إطار فضي على مكتبها فأخذت الصورة وقبلتها وضمتها إليها وخاطبت نفسها: آه يا أبي لو لم تمت لما كان عقبة معنا الآن. اللعنة عليك يا عقبة ما الذي تنوي فعله بنا؟خفق قلبها عندما سمعت طرقا على باب غرفتها فقامت قائلة من؟

- افتحي.

عرفت أنها والدتها فقامت لتفتح لها. دخلت والدتها إليها، وكانت امرأة في الخمسين من العمر ممتلئة الجسد يجمع بينها وبين ابنتها شبه في الكثير من الملامح ولكنها سمراء فأصولها ترجِع إلى مدينة "تعز" في الجهة الجنوبية لليمن. نظرت إليها والدتها فبادرتها قائلة: لِم تغلقين على نفسك باب غرفتك بالمفتاح؟

لم تجبها فنظرت إليها والدتها: ماذا بك؟

- حقيقة يا أمي لِمَ لا يغادرنا عقبة؟

- ماذا تريدين أن نفعل هل نطرده؟

- وإذا؟

- تعلمين أنه يملك نصف البيت وأنه يريد الزواج منك.

- ولكن أنا لا أريده.

- أفهمك يا ابنتي لا يعنيني البيت فليأخذوه إن أرادوا فما يهم هو أَنْتِ. أن تكوني حرة خارجة عن سيطرتهم.

- لقد منعني من القدوم إليك.

- ماذا؟

- ولكنه سمح لي بالخروج بشرط أن يصطحبني بسيارته. وحينها أنت اتصلت بي فلم أخرج.

نعم أفهم. حاولي اجتنابه ولا تستفزيه كثيرا فهو شاب عصبي المزاج طماع رغم أنه يتمتع بصفات جيدة ولكن تلك الصفتين جعلتني أنفر منه وخاصة إنه لا يحبك بل خضوعًا لوالده بالزواج منك.

- لن أتزوجه.

- اهدئي يا ابنتي والآن أخبريني ماذا عملت باختبار اليوم.

- لا بأس ولكن شيماء لم تحضر.

- نعم - أعانهم الله - غدا من الضروري أن تذهبي إليها.

- سأذهب صباحا وأصطحبها معي إلى الجامعة.

- حسنا أسألك هل تعرفين شابًا يدعى مالك العولقي؟

- لا من يكون؟

- لا أعلم فقد كان متواجدا اليوم في بيتهم وشعرت بأن شيماء معجبة به وهو يبادلها الإعجاب.

- وكيف؟

- لاحظت عليها بعض الارتباك عندما أخبرتها والدتها بحضوره ثم حديث والدتها عنهما.

- ماذا قالت؟

- كل الذي ذكرته خالتك صفية أنه شاب جيد وجار لهم وجاء من عدن ليدرس ويعمل في صنعاء.

- وكيف يبدو؟

- حقيقة وجدته شابًا محترمًا فإذا فيه خير سنزوجه شيماء وسأبارك لهما هذا الزواج على الأقل أفضل من الحياة مع أب عاطل وحياة بائسة. عموما قد أطلت الكلام أتركك الآن لترتاحي فلا تقلقي فأنا معك.

اقتربت رابعة ومالت إلى صدر أمها فضمتها إليها بذراعيها ثم خرجت. رجعت تجلس أمام أوراق مذكراتها تقلبها، فاسترخت وهي تسترجع بعض الذكريات الجميلة مع والدها ووالدتها، ثم كتبت أحداث اليوم بقلمها الرصاص كما اعتادت حتى خطت آخر حرف، أغلقت دفترها وهي تشعر بالإرهاق وذهبت إلى النوم.

الفصل الثالث

استيقظت مبكرة عن موعد محاضرتها فرفعت هاتفها، وهاتفت شيماء التي أجابتها أخيرا.حاولت مواساتها ببضع كلمات ثم طلبت منها أن تجهز نفسها لتقلها معها إلى جامعتهما. فكل منهما تدرسان في كلية العلوم الطبية بتخصصين مختلفين، فرابعة بالتحاليل الطبية، وشيماء تخصصت بالصيدلة حيث تميزت بذكاء فطري عالٍ وسرعة بديهة والذي أهلها لتكون الأولى على دفعتها في الثانوية العامة فأخذت رقية عبد الخالق بيديها وأدخلتها الجامعة على حسابها وتكفلت بكل مصاريفها.

وصلت رابعة إلى بيت شيماء في منطقة العلمين وهي منطقة شعبية تراثية بيوتها من طين تحمل الطابع اليمني القديم. أوقفت رابعة سيارتها بعيدا نسبيا فلم تستطع التقدم أكثر نظرا لضيق الشوارع ولخوفها على سيارتها. اتصلت بشيماء حينما وصلت، ولم تلبث دقائق حتى قدمت شيماء ترتدي عباءتها وعليها النقاب كما تعودت، فابتسمت رابعة بتهكم لمظهرها. كانت فتاة نحيلة القوام حنطية البشرة رقيقة الملامح جذابة الحضور لديها كبرياء رغم ما تعانيه من بؤس ولشعورها أنها دون الغير بعض الأحيان، ولكن كانت تتكل على تخرجها حيث وعدتها رقية بتوظيفها في المشفى بعد تخرجها. بالإضافة إلى أنها تتمتع بثقافة عالية فهي تجيد اللغة الإنكليزية باجتهاد شخصي إلى بعض إلمامها ببعض اللغات الحية وذلك نظرا لعملها في فترات الصيف مع بعض الشركات السياحية التي تجول بالأجانب إلى أماكن مختلفة في اليمن، فقد كانت تعيل نفسها وأسرتها المؤلفة من

عشرة أفراد؛ سبع فتيات وثلاثة شباب. وكان والدهم عبد الفتاح يعمل حارسا في مشفى اليمن براتب يكاد يكفيهم. فخرجن الفتيات للعمل والدراسة وكذلك الشباب. فالحياة صعبة وكل واحد منهم تكفل بمصروفه الخاص. وبقي الأب غارقا في رغباته ومضغه للقات وشرب السكائر وأحيانا بالزواج؛ فقد تكرر زواجه عدة مرات، وطلقهن جميعا، وبقيت الوحيدة أم شيماء على ذمته، ثم جاءت جريمته وحبسه القشة التي قصمت ظهر أولاده، فلم يعرفوا كيف يتصرفون رغم إشفاقهم عليه، إلا أنهم ظلوا يلومونه، فقد استحق نتيجة ما اقترفت يداه، فهم يعلمون أن القصاص بالإعدام ينتظره لا محالة، وهذا الحكم الشرعي في اليمن، إلا إذا تنازل أهل القتيل وهذا أمر مستبعد لأنهم سيطالبون بدية كبيرة.

ركبت بجانب رابعة بصمت فحركت رابعة سيارتها إلى الجامعة. بقيت شيماء صامتة طيلة الطريق ولم تحاول رابعة إزعاجها بالأسئلة، فما إن وصلتا إلى الجامعة وركنت رابعة سيارتها أخبرتها بأن عليها مراجعة أستاذ المادة التي تغيبت عن اختبارها يوم أمس، وأن تشرح له ظروفها فلا بد أن يكون متفهما. هزت شيماء رأسها بأسى ومشيا معا. مضى اليوم كعادته ومضت بقية الأيام. حتى اقترب موعد الإجازة الصيفية وانتهت فترة الامتحانات. وكانت شيماء كعادتها اسمها من ضمن لوحة الشرف ورابعة علامتها متفوقة. فلا أحد يستطيع منافسة شيماء فكان اسمها رمزا للمثابرة والتفوق حتى إن أستاذ المادة التي غابت عن امتحانه، ما إن رآها حتى بادرها بالقول: لقد قلقت عليك أين كنت؟ وسألها عن سبب غيابها. أخفت عنه الحقيقة وأخبرته بأن والدها قد ساءت حالته الصحية ونقل إلى المشفى نظرا لأنها ذات كبرياء وعزة نفس كبيرة.

***

وصلت قضية عبد الفتاح إلى القضاء وتم الحكم عليه بالإعدام. وصل الخبر مسامع رابعة وكانت تقضي إجازة الصيف في تركيا لمدة ثلاثة أسابيع وكان من المفترض أن تزور القاهرة لأسبوع ثم تعود إلى صنعاء فاضطربت وجلست في غرفتها لا تعلم ماذا تفعل عندما تعود، هل تعود لتعزية شيماء أو تبقى تقضي إجازتها دون اكتراث. فأخبرتها والدتها بأن عليها الرجوع إلى صنعاء ومساندة عائلة المنصوري بشدتهم. فهم أقرباء لها وعليها أن تكون معهم في محنتهم، انزعجت رابعة بأن تكون أمها مثالية أكثر من اللازم وكأنها تريد مسح كل دمعة حزن على خد كل إنسان فرفضت العودة إلى صنعاء وأخبرتها بأنها ستذهب إلى القاهرة وتلتقي بأصدقاء لها هناك وإن أرادت أن تعود فلتعد هي.

لم تستطع والدتها أن تثنيها عن رأيها فعادت إلى صنعاء وسافرت رابعة إلى القاهرة، وظلت فيها ثلاثة أسابيع أخرى. لم تتمكن كثافة الاتصالات التي أجرتها والدتها لها في تشجيعها على العودة حيث قضت تتجول في أرجاء مصر من القاهرة إلى الإسكندرية وشرم الشيخ مع أصدقائها المصريين والعرب الذين تعرفت عليهم عبر صفحة التواصل الاجتماعي الفيس بوك. فقد أخفت على والدتها أنها ستلتقي بهم فلو علمت والدتها بذلك لما كانت سمحت لها فقد أخبرت والدتها أنها ستنزل عند صديقتها اليمنية من أم مصرية المقيمة في القاهرة والتي تعرفها والدتها جيدا وتعرف أسرتها لذلك سمحت لها. ولكن عندما أخلفت بوعدها من أسبوع إلى ثلاثة أسابيع أثار ذلك حفيظة أمها وخاصة أنها لا تعرف تحركاتها فمع رابعة جهازها النقال الذي لا يتيح لرقية معرفة مكان ابنتها فمن السهولة أن تكذب رابعة على والدتها وقد فعلت ذلك حيث إنها أخفت عليها أنها في شرم الشيخ وأخبرتها أنها عادت إلى القاهرة من الإسكندرية.

دخلت غرفتها في الفندق بعدما خرجت من البحر بعد يوم سباحة مرهق مع أصدقائها، اغتسلت وغيرت ملابسها واسترخت، ثم سمعت طرقا على الباب. فرأت خادم الفندق يحمل باقة ورد حمراء فذهلت كثيرا من جمال الباقة ومن المفاجأة. ممن تكون هذه الباقة؟

أخرجت البطاقة وبخط إنكليزي أنيق قرأت المكتوب عليها " أتمنى أن تقبلي دعوتي للعشاء هذه الليلة اسألي النادل عن طاولة باسمك وستجديني في انتظارك".

ارتجفت من هذا الشاب أو الرجل أو ربما امرأة يدعوها إلى العشاء بهذه الصورة ربما مقلب ما. قلقت كثيرا. جلست في مكانها ومضى الوقت وارتدت ملابس السهرة ومشطت شعرها الذي تركته مفتوحا. ومشت الهوينى تشعر باضطراب وحذر. وصلت إلى القاعة، وكان كما قرأت أن عليها أن تسأل النادل عن طاولة تخصها، ولكنها خافت أن يكون مقلبا من شخص ما فأرادت التراجع، ثم غيرت رأيها وتشجعت، وسألت المشرف عن الصالة فأشار إليها أن هناك فعلا طاولة باسمها، فجلست حتى تقدم إليها شاب أشقر وبلغة إنكليزية ابتسم لها وجلس فجلست بهدوء مستغربة من يكون.

فقال مبتسما: عزيزتي رابعة أنا جون. رمشت بعينها وكأنها لم تصدق أن يكون جون زميلها في المدرسة موجودا في شرم الشيخ. ظلت متفاجئة فسألته: كيف تمكنت بالتعرف علي وعلمت بوجودي؟.

قال: من صورك المنشورة على الفيس بوك. وبالمناسبة ما زلتِ كما أنت فتية وعندما رأيتك هنا قررت أن أصنع لك مفاجأة وأدعوك للعشاء الليلة.

أكلت بشهية وتذكرا معا الأيام الجميلة التي قضتها في طفولتها في بريطانيا والأصحاب والأماكن المختلفة. جلسا معا حتى وقت متأخر، فعادت إلى غرفتها تشعر بالتعب فنامت بملابسها. وعند إشراق الشمس لم تسمع طرقات على الباب حتى ازداد الطرق عنفا فاستيقظت بفزع تخاطب نفسها: من الطارق؟

شعرت باضطراب وخوف وهي تهم بفتحه من شدة الطرق فوجدت عقبة يدفعها إلى الداخل وبصوت متمالك الأعصاب قائلا: الآن غيري ملابسك واجمعي ثيابك وإلا وقسما أرتكب فيك جريمة شرف.

وقفت مصدومة وهي ترى الشرر في عينيه، لم تستوعب كيف هو هنا، كيف جاء وكيف عرف بوجودها فسألته: كيف عرفت أنني هنا؟

- لا يهم والآن اجمعي أغراضك، فقد حجزت مقعدًا لك في طائرة متجهة إلى صنعاء هذه الليلة.

- لا لن أعود.

- رابعة تركتك تفعلين ما تشائين ورأيتك تجلسين مع ذلك الأجنبي الذي لا أعرف من هو وانتظرت حتى أرى إلى أين ستصل هذه المهزلة، ثم رأيتك تدخلين غرفتك وتمالكت أعصابي حتى آتي إليك صباحا وأنا هادئ لكي لا أقترف شيئا أندم عليه مستقبلا والآن بهدوء اجمعي حاجياتك أو أحملك على ذلك غصبا عنك.

غيرت ملابسها وجمعت ثيابها وأشياءها وخرجا من الفندق بعدما أكمل هو بقية الإجراءات وركبا الطائرة إلى القاهرة وانتظروا حتى الليل موعد طائرتهم إلى صنعاء، لم يكلمها مطلقا طيلة طريق عودتها، ولم يرد على سؤالها كيف استطاع

أن يعثر عليها. وعند وصولهما البيت، قال بصوت هادئ: انزلي وإن رأيت أمك أخبريها بأنني جئت أستقبلك من المطار وأنك لم تخبريها بقدومك لرغبتك بأن تفاجئيها بعودتك.

تنفست بغضب ونزلت وطرقت الباب خلفها بقوة. نزل من السيارة وأخرج حقيبتها وحملها إلى الداخل وتركها في الصالة وذهب إلى غرفته. علمت والدتها بقدومها صباحا، فلم تشأ أن توقظ والدتها وتراها في تلك الحالة. استرخت حتى الصباح ودخلت إلى والدتها التي سرَّت بعودتها وأنها أخيرا رجعت إلى رشدها. بحثت عن حقيبتها، فلم تجدها، ونزلت ورأتها في الصالة، فخاطبت نفسها: اللعنة عليك يا عقبة ألا يكفي أنك عدت بي بهذه الطريقة حتى أنك لم تكلف نفسك بحمل حقيبتي إلى أعلى. وصاحت بصوت عالٍ: إيفا. وقدمت الخادمة، فأشارت لها أن تحمل لها حقيبتها.

***

و في المساء دخلت إليها والدتها تشير إليها أن ترافقها إلى بيت المنصوري لتعزيتهم. رغم أنها لم تكن تريد ذلك فهي تكره منظر الحزن والأسى وخاصة أن ظروف الوفاة مأساوية فشعرت أنها لا تستطيع تحمل رؤية البؤس على وجوه الناس، ولكن لم تتمكن من رفض طلب والدتها فقامت وارتدت ملابس قاتمة ووضعت بعض المساحيق على وجهها، ولبست عباءة خالية من أي تطريز وحملت حقيبتها السوداء وخرجت. رأتها والدتها عند نزولها. فبادرتها بالقول: هل نحن ذاهبتان إلى حفل أم إلى عزاء؟ اصعدي وامسحي وجهك، ولا تكرريها مرة أخرى.

أخفت رابعة استياءها وعادت إلى غرفتها، فخرج عقبة من غرفته بعدما سمع أطرافًا من حديثهما، وجلس بجانب رقية قائلا بهدوء: مازالت صغيرة فلا تقسين عليها.

- عقبة إن كنت سمحت لك قسرا العيش معنا فهذا لا يعني أنني أسمح لك بالتدخل بشئوننا.

- حسنا لقد أعدم منذ فترة ولِمَ هذا الكرنفال الذي تفتعلينه، وكذلك لِمَ تجعلين رابعة تحتكُّ بظروف سيئة وبمجتمع لا يتناسب مع مكانتها الاجتماعيةَ.

امتعضت ولم ترد عليه وأشاحت بنظرها بعيدا عنه، فهي كلما التقت به رغبت بأن تلقي به في أول سلة مهملات. رنا الصمت بينهما، نزلت رابعة وقامت أمها وهمّتا بالخروج من البيت فقال عقبة: يا زوجة عمي كوني حذرة.

تراجعت رقية خلفا ونظرت إليه قائلة: حذرة؟!

أخذ يتأمل رابعة بنظرات قوية وكأنه يهددها بتلك النظرات ثم أشاح ببصره عنها نحو والدتها قائلا: كوني حذرة على رابعة فهي جميلة والسير في أماكن كالتي ستذهبان إليها خطر، لأن فيها الكثير من اللصوص.

تقدمت رابعة إليه وهي تشير لأمها ألا ترد عليه، وقالت: أنت آخر رجل أرغب بأن يخاف علي ولا تقلق فأنا وأمي حريصتان على نفسي أكثر من أي إنسان آخر فاحتفظ بحرصك على نفسك واذهب وتزوج بعيدًا عنا واتركنا لشأننا.

مط شفتيه بسخرية قائلا: أتزوج وأترك عروسي هنا؟ هذا ليس عدلا.

أخذت رابعة نفسا عميقا وخرجت مسرعة وتبعتها والدتها التي عاتبتها قائلة: لا تجادليه بتاتا ولا تعطيه أية أهمية تذكر فذلك يسره كثيرا.

- حسنا يا أمي.

بقيتا صامتتين حتى وصلتا إلى بيت شيماء وكان البيت ما زال يعج بالزائرين المعزين. دخلت تلحق والدتها، ولم تر شيماء فتقدمت للسلام على والدة شيماء، ثم جلست تنظر للناس الغرباء، فلم تر أحدًا يبكي، فالدموع جفت خلال المدة الماضية ولكن على البعض ملامح الأسى خاصة على وجه والدة شيماء وأخوتها. تلفتت حولها، ولم تجد أثرًا لشيماء فنظرت لها والدتها التي أشارت إليها قائلة: ربما شيماء في غرفة أخرى اذهبي وابحثي عنها. قامت وخرجت ورأت مريم أخت شيماء الصغرى، فسألت عنها فأشارت إليها أنها نائمة فكلما تفيق صحت تعود للنوم فلم تتحمل المسكينة الصدمة فهي حساسة دوما. جلست بقرب شيماء التي تفترش الأرض كما تعودت في نومها هي وبقية أفراد أسرتها. أسندت ظهرها إلى الجدار، وتربعت في جلستها، وتأملت الحاضرين. لم تتحدث إليهم إن كان البعض وجه لها بضع أسئلة عن الحال والأخبار، ولكن كانت تجيب عليهم بتحريك رأسها بالإجابة أو النفي. اقتربت من شيماء سمية الأخت الثانية فمالت إليها لتوقظها وبهمس أخبرتها بوجود رابعة، فقامت، وما إن رأت رابعة حتى ارتمت في أحضانها، وأخذت بالبكاء.

تعجب الجميع لَمَ رابعة التي أفاضت شيماء عن كاهلها لها.رغم برود رابعة في مشاعرها تجاهَها. ولكن الجميع لا يعلم ما تكنه شيماء لرابعة ولرقية تحديدا فهي تشعر أن وجودهما في حياتها فسحة أمل لمستقبل أفضل.

ضمتها رابعة إليها برقة وأخذت مقلتاها تدمع وشاركتها الحزن، ثم فاضت بكاء فتذكرت أباها وفقدانها له وشعرت وكأنها مجددا تفقد أباها. بل ربما أنها لم تبكِ على والدها كما تبكي عليه الآن. كانت طفلة صغيرة والآن هي امرأة ناضجة والحزن والألم في الحالتين العمريتين مختلف، كانت وقتها لا تزال تلعب. ولكنها الآن أصبحت أكثر فهما وإدراكا للحياة القاسية رغم وجود الترف الذي يحيط بها. و"عقبة" التي تشعر أنه عَقَبَةٌ أمام سعادتها.

أخرجتها من أفكارها عندما نظرت شيماء لها قائلة: أريد أن أخبرك سرا. ابتسمت رابعة وتوجست متسائلة: ما هو هذا السر؟ فهي تحب سماع الأسرار كأي امرأة يقتلها الفضول. فرنت إليها شيماء بهمس: إنني أحب شابا يا رابعة.

تراجعت رابعة تخاطب نفسها. إنه الحب، آه ماذا يصنع الحب بالإنسان؟ نعم شيماء تحب. يبدو أنه الشاب الذي حدثتها أمها عنه فسألتها بهدوء: من يكون؟

إنه جارنا، طالب في سنته الأخيرة في جامعة صنعاء تخصص محاسبة وهو يبحث عن عمل لنتزوج.

- نعم فليوفقه الله.

- لذلك أسألك أن تجدي له عملا.

- أنا؟

- نعم إذا أمكن

- وأين سأجد له عملا؟

- في المشفى مثلا أو في معهد اللغات.

- حسنا سأرى. سأسأل أمي أو عقبة.

- عقبة ابن عمك؟

- نعم هو المدير المسئول ولا أستطع تجاوزه رغم أنني شريكته ولكن للأسف ليس بالنصف فأمي تملك حصة منها.

- حسنا أرجوك.

- ما اسمه؟

- مالك العولقي.

- حسنا سأكلمه

ابتسمت شيماء برضا وربتت رابعة عليها ونظرت إلى ساعة يدها التي تجاوزت السابعة مساء فاتصلت على والدتها ليعودا إلى البيت.

***

خرجت رابعة وظلت شيماء في الغرفة وحيدة تأكل بعض فتات من الخبز الملوح، وتغمسه في الشاي وتفكر برابعة وبنفسها والفرق بينهما. لقد بدت رابعة اليوم بسيطة على عكس العادة، ورغم ذلك لم يخلو جسدها من عطر غالي الثمن أو عباءة حريرية. سألت نفسها لمَ أخبرتها عن مالك هل لأبين لها بأنه رغم فقري إلا أنني فتاة مرغوبة يتمناها البَعض وأحبها شاب وسيم وابن عائلة كبيرة في جنوب اليمن.

لم يكن محتاجا للمال بقدر حاجته للخبرة قبل تخرجه ثم وظيفة مناسبة. وهذا يعني أن حياتها ستأخذ مجرى أفضل إن عين في مشفى اليمن، وهذا سيسرع من أمر زواجهما. كان كبرياؤها يقتلها أحيانا، فكثيرا ما رفضت ما توهبه رابعة لها، ولإخوتها من ملابسها القديمة. كانت أخواتها الفتيات يسرّن كثيرا بل يتخاصمن أي واحدة منهن تأخذ القطعة الأجمل إلا هي. كانت تكتفي بما تدخره من عملها في السياحة بالإضافة إلى ما تعطيه لها رقية من مال كانت تعتبر والدة رابعة كخالتها فهي قريبة أمها وامرأة خيرة تحبها لتواضعها وحسن معاملتها لها ولإخوتها، ولكن كانت المميزة من ضمن إخوتها لدى رقية بسبب تفوقها. وضعت آخر لقمة في فمها وأخذت هاتفها النقال وأرسلت رسالة حب لمالك فأجابها برسالة حب جعلتها تنسى نفسها ومن حولها لثوانٍ فتنهدت بعدما أفاقت من حلم جميل.

الفصل الرابع

عادت رابعة إلى البيت مع والدتها وقدمت لها إيفا العشاء لم تلحظ وجود عقبة وسيارته، بقيت محتارة كيف تتصرف؟ هل تخبر عقبة عن مالك، أم تجد حيلة ما لكي تلتقي بمالك لوحدها، أو حتى بوجود شيماء لا تدري لَمَ نغزها قلبها عندما علمت بأن لشيماء حبيبًا. فأدركت أنها تفتقد إلى الحب أيَ حب رجل يعشقها، كل علاقاتها الذكورية تدور في إطار واحد، وهو الصداقة والزمالة لا أكثر، لم يقترب منها أحد عبر عن حبه لها بل هي لم يخفق قلبها لشاب رغم أنها تعجب بالبعض، ولكن كانت تتخذ من علاقتها بهم كنوع من الصداقة البريئة لم تشعر أنها محتاجة أو ربما لم تفكر سابقا نظرا لاهتمامها فقط بالمرح والتسلية. فالحب لم يكن في قائمة اهتمامها ربما لصغر سنها أو لأنها لم تلتق بالشاب المناسب. استرخت على فراشها بعدما جلست قليلا مع أمها وأخبرتها برغبتها بالنوم مبكرا. تململت على الفراش، ثم قامت إلى مكتبها، وأخرجت دفترها، وبدأت تقرأ ذكرياتها القديمة مع والدها وتذكرت يوم أهداها والدها دفترا صغيرًا قائلا لها: اكتبي كل ما يجول في خاطرك واعتبريه سرك الصغير. تنهدت وفتحت صفحة جديدة، وكتبت ما مر لها من أحداث أثناء زيارتها لمصر وجون وحركته الرائعة. لم تخف عن والدتها ما فعلته مع جون، ولكنها لم تخبرها بالحقيقة كلها حيث أخبرتها فقط أنها التقت به بالبهو وأنهما تناولا البوظة. فلو علمت والدتها بتصرفها وانسياقها نحو مشاعرها من غير حساب وقبولها لدعوة على العشاء من إنسان غريب، فمؤكد أنها ستحرم عليها السفر وحيدة. ولكن وجود عقبة يؤرقها فهي تعلم أنه يعرف وليس مهما إن فضحها أمام أمها لأنها

تستطيع تكذيبه بأنه يلفق عليها تهمة كاذبة لمجرد أنه يريد نزع الثقة بينها وبين والدتها، ومن المؤكد أن والدتها ستقف معها ككل مرة وستكذبه. لذلك لن يخبر والدتها مؤكدا. سمعت صوت سيارة قادمة فقامت ونظرت إلى النافذة لكن تراجعت بخيبة فهي لم تكن سيارة عقبة بل صديقة لوالدتها جاءت إليها بزيارة سريعة عادت إلى مكتبها ودونت في دفترها " ما زالت تلك اللهفة تغمرني من الصغر تستحوذ علي كلما سمعت صوت سيارة عبرت. أفتح النافذة فأطل برأسي لأنتظر الشوق القادم ليضمني إليه. إنني أحتاج إليك كأنثى كما أحتاج إلى أبي كطفلة. حين كان يضمني بذراعيه ويدغدغ كياني مرحا يقبلني كالمطر. فكن لي ذلك الأب بصورة عشق أهواه. وبغرام أستحم بظله. آه كم أشتاق إليك يا أبي ويا عقبة لو لم تكن قاسيا علي بتلك الصورة ربما أحببتك حقا. لكن رباه لا يمكن أسمح لعاطفتي بالانسياق وراء رجل استغلالي مثله".

شعرت بالضيق، فوضعت قلم الرصاص جانبا فجاءها خاطر أن عقبة ربما يساومها بسبب جون ويضغط عليها لكي توافق على الزواج منه. يا إلهي هذه مصيبة عليها أن تجد حلا لها. قامت وفتحت النافذة فلم تجد سيارة عقبة رغم أن الساعة تجاوزت العاشرة. تركت نافذتها مفتوحة رغم الهواء البارد حتى تشعر بقدومه فتخبره عن مالك. حسنا ماذا سيكون رد فعله هل سيقبل، ألن يسأل عن سر الاهتمام المفاجئ الذي تبديه رابعة لإنسان غريب؟ فهو لن يصدقها مؤكدا أنها تسعى للمساعدة ولا أكثر. كانت تدرك أحيانا كثيرة أن عقبة يعرف بماذا تفكر وكيف تتصرف فكانت تخشاه كثيرا بسبب ذلك وتحاول تجنبه مرات عدة. أخذت رواية نجيب محفوظ بداية ونهاية تكمل قراءتها فمضى الوقت ونظرت

إلى ساعتها التي أشارت نحو الثانية عشرة صباحا، ولم تسمع حسا لعودة عقبة يا إلهي ما الذي أخره، قامت ونظرت من النافذة فلم تجد سيارته. هل أصيب بحادث، أو أنه يسهر الآن مع أصدقائه. أخذت تفكر أين يكون، ثم جفلت، وقالت: وما الذي يعنيك يا رابعة أين يكون هل هو اهتمام منك أو بشيماء وحبيبها أو بالأصح بحبيب شيماء المجهول. أغلقت نافذة غرفتها وشعرت بالعطش. نزلت إلى الدور الأرضي ودخلت المطبخ المضاء على غير العادة فرأت عقبة جالساً يتناول بعض الطعام. نظر لها بطرف عينيه، ورجع يستأنف الأكل، فدخلت وصبت لنفسها ماء وشربته. أخذت تشرب بمهل وتفكر هل تخبره أم لا. فارتعشت عندما سمعت صوته يقول:

- ماذا بك هل تريدين أن تكلميني بشيء؟

ارتجفت لسؤاله فالتفتت إليه قائلة: لا يوجد شيء.

- راجعي نفسك عزيزتي ربما تريدين إخباري بأمر مهم.

- لا شيء. بالمناسبة أين سيارتك؟

- سيارتي؟!

- نعم لم أرها.

- كيف عرفتي أنها غير موجودة؟ هل تراقبينني عزيزتي؟ هل الشوق ملأ قلبك ونزل الحنان من السماء ليغمر قلبك علي أو أن الحب اكتسح وجدانك فجأة. أشكرك يا عزيزتي لم أعرف مسبقا أنك تحبينني بهذه الصورة حتى إنك تقلقين علي وترقبين عودتي.

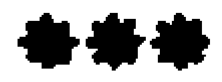
لجمها رد فعله. لم تعرف ماذا تقول وبماذا تدافع عن نفسها، فقالت بعدما لجمت غضبها: لقد نظرت إلى النافذة قبل نزولي، ولم أجد سيارتك، ثم تعجبت من وجودك هنا. هذا كل ما في الأمر فأنت تبالغ جدا بردات فعلك وكأنك الشاب الوحيد الذي علي أن أحبه وأعشقه ولم يخلق غيرك. فتأكد يا عزيزي أنك آخر رجل في الدنيا سأفكر به بل لن أفكر بك مطلقا فالحياة بعيدة عنك غنيمة والعيش معك نار لا تخمد.

ثم همت بالانصراف فاستوقفها قائلا: ما حصل يا ابنة عمي في شرم الشيخ لن يمر وكأن شيئا لم يكن. يوما سأفتح معك الموضوع فلا تقلقي عزيزتي انتظريني، ولكن قبل ذلك انتبهي لدراستك وتذكري يوميا بأن هناك رجلا يتمنى الزواج منك وسيحصل عليك يوما.

أرادت أن تقذفه بالكأس الذي بيدها ربما كان أفضل شيء تصنعه لتخرسه. فتمالكت أعصابها وذهبت إلى المغسلة ووضعت الكأس فيها وهمّت بالخروج فاستوقفها قائلا: ألا تكلفين نفسك بغسل الكأس، لا تخافي لن تتقطع يدك إن بللتها بشيء من الصابون مع قليل من الماء فهو مجرد كأس.

عضت على شفتيها وتنهدت بقوة لكي لا تنفجر في وجهه وانصرفت مسرعة إلى غرفتها. صحت من نومها في الخامسة فجرا، وهي عازمة أن ترى خطيب شيماء قبل أن تكلم عقبة. استرخت للفكرة خاصة أنها لم تستعجل وتخبر عقبة عنه، فقد أرادت أن تتعرف عليه قبل أن يقابله عقبة حتى تستطيع الدفاع عنه وعدم السماح لعقبه برفضه بل عليها أن تجبره بالموافقة على توظيفه.

***

وصباحا خرجت لتصطحب شيماء معها للجامعة كما وعدتها فركنت سيارتها جانبا، وبعد قليل قدمت شيماء إليها وركبت معها، وأثناء الطريق أخبرتها قائلة: لقد كلمت ابن عمي وأخبرني بأنني علي أن ألتقي بمالك أولا وآخذ منه الأوراق وأعطيه انطباعًا أوليًا عنه.

ابتسمت شيماء لها براحة وقالت: حسنا سأخبره أن يجهز أوراقه وأن يلتقي بك ولكن أين؟

- حسنا أخبريه أن يلتقي بنا في الثالثة مساء في مقهى الركن الشرقي في شارع بغداد. اسأليه إن كان يعرفه.

- حسنا. قامت بالاتصال عليه ولكن لم تجد جوابا. فقالت: يبدو أنه نائم أو مشغول.

لم تعلق رابعة. بل انتظرت بفارغ الصبر لقاءها بمالك. أخذت تخاطب نفسها: لِمَ أنا مهتمة به؟ هل لأني لم أجرب الحب بعد، أو ربما فضول لمعرفة من هو الشاب الَذي أسر قلب هذه الفتاة البائسة، ربما يكون شابا حقير الشأن والهيئة فلِمَ كل هذه الفوضى من الأفكار التي تعشعش في رأسي.

***

خرجت شيماء من قاعة المحاضرات فوجدت اتصالا من مالك فباشرت بالاتصال عليه فأجابها، فأخبرته، ثم أنهت مكالمتها معه.

فسألتها رابعة: ماذا؟

- قال إنه يفضل الذهاب واللقاء بابن عمك مباشرة؛ لأن ذلك سيوفر له مزيدًا من الوقت.

هزت رابعة رأسها وأخفت غيظها قائلة: حسنا، ولِمَ لا.

مضى اليوم كعادته وأقلت شيماء إلى بيتها، ثم رجعت إلى بيتها تفكر هل تخبر عقبة أو تضغط على مالك لكي يقابلها أم ماذا؟ ظلت تفكر، فجاءتها فكرة. فرفعت الهاتف لشيماء قائلة: عزيزتي أخبرت ابن عمي وقد وافق على لقائه وهو سينتظره غدا في الرابعة عصرا، نعم في إدارة المشفى ولكن عليه أن يسأل الإدارة أولا قبل أن يلتقي به لكي يأخذوه إلى مكتبه.

شكرتها شيماء كثيرا ولم تعرف ماذا تقول ولكن بادرتها قائلة: سأخبره غدا.. جيد، أشكرك مرة أخرى.

***

استيقظت رابعة في اليوم التالي عازمة على عدم حضور أية محاضرة بل واعتذرت من شيماء بأن لديها عملاً مع والدتها وعقبة فلا يمكنها المرور عليها. وأكدت عليها حضور خطيبها أو حبيبها.

وفي الواحدة تناولت الغداء وكان عقبة قد رجع من المشفى فسألته فجأة وهم يتناولون الطعام: عقبة هل ستعود بعد الظهر إلى المشفى؟

فابتسم متعجبا: ولِمَ السؤال والاهتمام منك؟!!

- أريد الذهاب إلى المشفى.

- اذهبي وما شأني أنا؟!!

- قلت ربما تذهب وتأخذني معك.

- تركبين معي؟

- نعم.

- يا سبحان الله مغير الأحوال.

- وماذا يعني ذلك؟

- لا لم أعنِ شيئا ولكن يؤسفني أنني لا أستطيع.

- ولِمَ؟

- تعلمين أنني أداوم مساءً في مؤسسة والدي.

- حسنا سأذهب أنا ... أشكرك.

تنفست الصعداء واطمأنت أنه لن يكون موجودا في المشفى فقامت سريعا وكانت والدتها تنظر إليها، ولكن لم تسألها عن سر اهتمامها المفاجئ بزيارة المشفى فتركتها تفعل ما يحلو لها. جهزت نفسها وتزينت وارتدت عباءتها الحريرية ووشاح من الحرير الفرنسي الملون. ونظارتها الشمسية وركبت سيارتها واتجهت نحو المشفى الكامن بالقرب من منطقة عصر المرتفعة التي من خلالها يمكن لأي إنسان أن يرى صنعاء كلها. كانت المنطقة جميلة وجبلية خضراء وجوّها منعش وهي أفضل مكان لبناء المشفى وخاصة قرب أحد الفنادق الشهيرة.

***

عادت إلى بيتها في السابعة والنصف ودخلت إلى غرفتها واسترخت على فراشها وتذكرت ما حصل معها فقد أخبرت الاستعلامات بحضور شاب يدعى مالك العولقي، وما أن يحضر عليهم أن يأتوا به إليها. جلست تترقب حتى حانت الرابعة إلا ربع فجاءها اتصال بحضوره. انتظرت دقائق، فسمعت طرقا على باب المكتب ودخل إليها. لم تصدق ما تراه فقد صدق إحساسها فهو شاب وسيم ربما لم تر في اليمن كلها أجمل منه.

أخذت تتقلب على فراشها قائلة: يا الله يشبه من يا رابعة؟ هل مذيع على إحدى القنوات أم ممثل؟ آه تذكرته.. إنه مغني شاب يشبهه تماما ولكن بنسخة يمنية فضحكت بسرور. واسترجعت بقية ذكريات اليوم.

نظر إليها باستغراب فبادر بالقول: عفوا أريد لقاء السيد عقبة أبو طالب. فأجابته قائلة: عفوا عقبة ليس هنا. فتململ في جلسته بضيق وقال: معي موعد معه.

فمطت شفتيها وقالت: صحيح ولكنه يعتذر منك لسبب طارئ وطلب مني أحل محله.

جلس بهدوء فناولها أوراقه، فرأت أوراقه الجامعية. وعرفت أنه في سنته الأخيرة. لم تعرف ماذا تسأله فغضت نظرها وحاولت لهو نفسها بالأوراق. دورات لغة إنكليزية بتفوق، علامات عالية في المواد الدراسية، بعض التدريب الذي تدربه في إجازات الصيف. فركت أصابعها وخافت أن تتلعثم، فكرت أن تأخذ أوراقه إلى معهد الرواد، ولم تلبث حتى أبعدت عنها الفكرة فهي تريده هنا أمام عقبة لتغيظ ابن عمها به، فرفعت سماعة الهاتف إلى مدير شئون الموظفين

الذي حضر بعد دقائق وكانت تلك الدقائق وكأنها ثوان وكانت عنده بالساعات لشعوره بالوقوع تحت عين صبية جميلة كالمجهر أخذت تتأمله وهو مطرق الرأس وعيناه تنظران بعيدا.

خفق قلبها بشدة وخاطبت نفسها: آه يا شيماء لقد صبرت ونلت هذا الشاب الذي وقع في حبك وترك فتيات اليمن كلها ولم يجد غيرك يا شيماء المنصوري ليحبك. ثم تراجعت وقالت: حسنا من يكون هو؟ في الأصل غير شاب فقير وضيع الشأن. كيف لي أن أغرم به؟ رابعة تمالكي نفسك هو لا يعرفك. حسنا وإن عرفك ماذا يعني وإن عرفت شيماء ماذا ستقولين لها؟ لا يهم فالكذب سهل ستخبر شيماء بأن عقبة طلب منها تحل محله في لقائها به. ولمَ عقبة بالذات المسئول عن لقاء الموظفين، لِمَ لا تحل محله في بعض الأحيان. لا يهمَ فشيماء لا تعرف شيئا المهم أنها قد التقت به.

أخرجها من أفكارها حضور مدير شئون الموظفين فقالت له: أبو علي هذا مالك العولقي وهو شاب مجتهد وما زال في الجامعة قسم محاسبة وفي آخر سنة دراسية أريد أن تجد له وظيفة مناسبة وبراتب ٥٠ ألف ريال كبداية واتفق معه ومع مدير القسم بالدوام الذي يناسبه لأنه ما زال طالبا.

ابتسم مالك لها متعجبا بل يكاد الفرح يطير من عينيه فهو راتب لا يأخذه إلا من لهم فترة في العمل ولا يأخذه المبتدئ. فنظر نحو رابعة يشكرها ولحق بالمدير.

تقلبت رابعة على فراشها قليلا بعدما استرجعت ذكريات اليوم. ثم قامت نحو مكتبها وفتحت دفترها على ورقة جديدة ودونت تاريخ اليوم ثم كتبت: آه إني شغفت به حبا. لم يخلق لها بل خلق لي وحدي.. أنا رابعة كل شيء لي.

الفصل الخامس

أكمل مالك أسبوعا على وظيفته حيث أخبر شيماء بلقائه بفتاة أخبرته بأنها تنوب عن عقبة في حالة غيابه، ولم يسألها عن اسمها ولم يرها في اليوم التالي. فاتصلت شيماء برابعة مستفسرة فأجابتها رابعة بكل هدوء قائلة: عقبة كان مشغولا فحللت محله. هل أزعجك ذلك؟

- لا ولكن لِمَ لم تخبريني؟

- قد نسيت.

كانت رابعة قد انقطعت عن التواصل مع شيماء لفترة بل حاولت تجنبها فهي كلما تراها تشعر بالغيرة تعصرها. لماذا هي؟ ما الذي ينقصني أنا لكي لا أقع في الحب. فلم أجد غير ابن العم المغرور المتسلط يريد الزواج مني ويا ليته يحبني بل إنه يريد مالي.

تناست شيماء مع الوقت تصرف رابعة وخاصة بعدما أحست بالراحة التي يشعر بها مالك في عمله والسرور الذي وجده. ففكرت كيف يمكنها أن تشكر رابعة، فقالت لها وهما في الجامعة: هل تسمحين لي أنا ومالك بأن ندعوك للغداء؟

ابتسمت رابعة، سألتها وهي تبدي اهتماما فاترا تخفي فيه اهتماما ملحا لهذه الفكرة: وهل أهلك سيوافقون؟

- معك كل الأمور ستسير بشكل جيد.

- وكيف؟

- سنخرج معا من الجامعة ونصطحب معنا مالك لنتناول الغداء. فنحن نريد رد جميلك معنا.

رفعت رابعة حاجبيها دهشة وقالت بصمت: من أنا يا شيماء إلى نحن أصبحت تتحدثين عنه وعنك. وكأنما واحد. وماذا بعد فقد أصبحت ذات شأن بهذا الحب، واعجباه!

ابتسمت بخبث للفكرة الرائعة التي ستتيح لها الفرصة لرؤية مالك حيث حاولت كبح جماح رغبتها في زيارة المشفى طيلة الشهر المنصرم حتى لا تشعره باهتمامها. اتفقتا على يوم الأربعاء. فارتدت عباءتها تحت وشاح حريري وتزينت كثيرا على غير عادتها وطلبت من شيماء أن تبدو أنيقة فهو الغداء الأول الذي سيجمعهما بمالك.

وقالت لها وهما ذاهبتان إليه: كنت أود ألا أكون موجودة حتى أترككما بحرية ولكن أنت لا تريدين ذلك.

- وكيف لي أن أجلس معه؟ أخاف أن يراني أحد ما فوجودك سيساعدني على تمالك أعصابي وذهاب خوفي.

ابتسمت رابعة بتهكم: حسنا فلنذهب ونمر عليه في المشفى وأنا التي سأدعوكما للغداء.

قادت سيارتها ووقفت عند إشارة سير وتأملت السيارات الأخرى فانتبهت على سيارة عقبة تتقدمها، فابتسمت بلؤم وحاولت ألا تتجاوزها إلا

عند اقترابها من المشفى فأسرعت حتى سبقته، وانعطفت جانبا وطلعت إلى الربوة المرتفعة وكانت تراقبه من مرآة سيارتها وتشعر بالزهو بأنها على وشك أن تحقق فوزًا عليه. وصلت إلى المشفى وأوقفت سيارتها عند المدخل الرئيسي وكان مالك يقف منتظرا ففتح الباب وركب في المقعد الخلفي فقادت السيارة مسرعة باتجاه الفندق القريب وهي تشعر بانتصار خفي على عقبة.

***

تقدم عقبة بسيارته وقد انتبه إلى سيارة رابعة وظن أنها ستنزل، فصدم عندما وجد مالك يركب معها وهو لم يلتق به أو يعرفه مسبقا. تصارعت رغبته ما بين النزول والسؤال عنه إدارة المشفى، وما بين اللحاق برابعة. ففضل اللحاق بها ليعرف أين ستذهب، ولم يطل صبره حتى رأى رابعة تقف بسيارتها في موقف الفندق وتنزل منها مع شيماء ومالك ويدخلون بهو الفندق، حبس رغبته في الدخول واللحاق بهم وتمالك نفسه. وانتظر قليلا حتى دخل، فسأل موظف الاستقبال الذي يعرفه جيدا عن ابنة عمه فأخبره أنها ذهبت إلى صالة الطعام. نقر على حافة طاولة ركن الاستقبال الخشبي بأصابعه وهو يفكر ماذا عليه أن يفعل؟ وعض على شفتيه وقبض على أصابعه وبقوة ضرب طاولة الاستقبال فلفت انتباه الحضور ثم اتجه مسرعا كفهد يريد اقتناص فريسته إلى المصعد وضغط على الزر إلى طابق صالة الطعام، وخرج ومشى الهوينى فانتبه لوجودهم وهم يطلبون الغداء.كانت رابعة تجلس بجانب شيماء وظهرهما أمامه لم يلاحظانه، ومالك في الجهة المقابلة لم يعرفه. أراد التقدم وضرب مالك، فتمالك أعصابه مخاطبا نفسه: بل رابعة من تستحق الصفع.

خرج من الفندق وعاد إلى المشفى وركن سيارته جانبا ونزل مسرعا لا يعرف من يسأل، وكيف يعرف من هذا الشاب، فرأى الحارس الشاب، وظل محتارا يسأل نفسه: هل يستفسر منه أم لا، فتراجع إليه يسأله: هل تعرف الرجل الذي ركب مع رابعة؟

فقال: إنه موظف جديد شاب لطيف يدعى مالك العولقي وهو قريب لعبد الفتاح المنصوري.

فردد عقبة بصوت منخفض: عبد الفتاح المنصوري. ماذا يعني ذلك؟ كان يعرف شيماء وعرف أنها التي مع رابعة. شاب يقرب لها مع رابعة. ماذا تفعل رابعة بالاثنين معا؟

ثم أخذ يردد اسم مالك العولقي. حسنا يا مالك. ثم اتجه نحو الداخل إلى مكتب شئون الموظفين فالتقى بالمدير المسئول فسأله مباشرة: من يكون مالك العولقي ومن عينه هنا؟

فأجابه المدير، فانفعل قائلا: وكيف تتصرف من غير الرجوع لي؟

- عفوا يا سيدي ولكنها الآنسة رابعة ولا أستطع رفض أي طلب لها.

- حسنا يا أبو علي.

عاد إلى البيت ينتظرها محاولا كبح جماح غضبه عن والدتها فأثارت انتباهها حركاته العصبية فسألته: ماذا بك يا عقبة هل تجلس على جمر أم الفأر أكل مالك؟

نظر إليها ثم أشاح بصره عنها وأخذت ساقه ترتجف من الغضب وهو يراقب الساعة التي تجاوزت الخامسة. فسألها فجأة: أين رابعة؟

- وما شأنك أنت؟

- أين رابعة؟

- في الجامعة.

- إلى هذه الساعة؟!

- هذا أمر لا يعنيك.

- أين رابعة؟

لِمَ تسأل أين رابعة؟ كل يوم تخرج وتعود كما تشاء ولا تسأل عنها، لماذا هذا الاهتمام منك؟

- أخبريني أين رابعة؟

- ذهبت للغداء مع شيماء.

- فقط؟

- ماذا تعني بفقط؟

- أعني هل هناك شخص آخر يرافقهما؟

تعجبت رقية قائلة: ولماذا تسأل؟

- أجيبيني على قدر سؤالي من يجلس معهما الآن؟

- لا أعلم ومن سيجلس معهما ولماذا تسأل؟

- بل تكذبين.

- أنا أكذب يا وقح.

وأثناء ذلك دخلت رابعة فصاح قائلا: والآن قد شرفت الآنسة رابعة المحترمة. أخبريني يا ابنة عمي المصون مع من كنت اليوم على الغداء؟

تنهدت رابعة بغضب قائلة: وما شأنك أنت؟

- أخبري والدتك أو أخبرها أنا.

- هي تعلم.

- ولكن لا تعلم كل الحقيقة. أم تريدينني أن أخبرها؟

بل تعلم أمي لقد كنت مع شيماء ومالك خطيبها.

فنظر إلى والدتها التي تداركت لتدافع عن ابنتها قائلة: نعم وقد استأذنتني وليس من الضروري إخبارك.

فهز رأسه قائلا: لقد استأذنتك؟ جميل جدا. أم تساعد ابنتها على الفحش.

فصاحت رابعة به: أنت شاب وقح اخرج الآن وقسما إن لم تخرج سآتي بفضيحة ستندم عليها.

فقال بهدوء مستخف: ماذا ستفعلين هل ستكملين السهرة مع المدعو خطيب شيماء أو مع صديقك الإنكليزي فربما يكون صديقك وشيماء ستارا لك.

فصاحت: وقح وحقير ومشمئز وكاذب أيضا.



فأخذ يصفق لها وانحنى لها قائلا: تجيدين التمثيل يا ابنة عمي. من اليوم لن تخرجي من البيت وهذا أمر.

فصاحت والدتها قائلة: عقبة لا يحق لك أن تقول ذلك أنا ما زلت حية أرزق وليس لأحد كلمة على رابعة غيري. وبعد وفاتي ليس لأحد سلطة عليها إلا زوجها فقف مكانك ولا تشطح بتصرفاتك وتنسى نفسك بأنك مجرد دخيل تريد المال وليس حبا أو اهتماما بنا. ثم نظرت إلى رابعة قائلة: رابعة اصعدي إلى غرفتك الآن.

جرت رابعة نحو غرفتها وأغلقت الباب عليها هروبا من أمها ومن عقبة فهي لا تعرف كيف ستبرر لوالدتها تصرفها. وبعد عشر دقائق جاءتها والدتها تدق عليها الباب. فتحت لها وقصت عليها كل ما حدث وأنها تريد أن تتيح لشيماء فرصة أن تجلس مع الشاب الذي تحب.

فأخبرتها والدتها قائلة: يا ابنتي هذه حركات فتيات معتادة عليها ولن أعاتبك ولكن لا تنسي نفسك مرة أخرى أين تعيشين ومن أي عائلة أنت. ومعك ابن عم لا يرحم، اليوم أنا موجودة حميتك منه، ولكن غدا لا نعرف ماذا يمكن أن يحصل. فاقتربت رابعة نحو أمها وارتمت في أحضانها فهدأت والدتها من روعها، وخرجت.

جلست رابعة إلى مكتبها وأخرجت دفترها وقلبت أوراقه وبدأت تكتب "يا إلهي كان اليوم رائعا لقد بدا وسيما أكثر من ذي قبل، ونظراته أكثر مرحا وابتسامته الجذابة التي لم أستطع أن أغض نظري عنها بل إنني أحسست وكأني أشم عطر وجوده.هل لاحظ نظراتي إليه، هل أدرك اهتمامي به؟ ربما سيصرف

نظرا عن شيماء، فما الذي يريده منها. وأنا أفضل منها في كل شيء. لقد أخرجت حافظة نقودي وأظهرت بطاقات الائتمان التي أملكها لكي أغريه ويعرف أنني صاحبة نفوذ ومال ووزعت أوراقا مالية للخدم الذين أشرفوا على خدمتنا، فأعطيت كل واحد منهم مبلغ خمسة آلاف ريال، لقد رأيت نظراته بل قد سال لعابه رغم شبعه من الأكل وهو يراني ألعب بالمال كما يلعب بورق الطاولة".

وأخذت تفكر: ربما لا يحبها، حسنا كيف لا يحبها وهو يعزم على خطبتها بل كلاهما يرتديان ذات الخاتم الفضي الذي اشترياه من باب اليمن. يا إلهي كم وددت أن أرتدي ذلك الخاتم. ما كانت تلك اللحظة التي وضع الخاتم في إصبعها. هل قبّل يدها أم خدها أو ربما شفتيها؟ يا الله ما أشهى ذلك وأين حصل ذلك ربما في مكان سري في بيتهما وكيف ذلك؟ ربما خرجت معه، علي أن أسألها هذا السؤال لكي أعرف كل شيء عنهما.

***

عاد مالك إلى بيته ووضع رأسه على فراشه وهو يفكر باليوم الرائع الذي قضاه اليوم مع شيماء ورابعة. فقد أحب شيماء منذ قدومه إلى الحي وفي أول سنة دراسية له، وكانت شيماء وما زالت في المدرسة. انتبه إليها عندما خرج صباحا ليركب الحافلة للجامعة، وكانت تخطو نحو مدرستها. تبادلا نظرات الإعجاب، ولم يحدث بينهما أي حوار لمدة ستة أشهر إلا في ذات يوم مر من تحت نافذة بيت شيماء فوجد ورقة ألقيت أمام قدميه من إحدى النوافذ فالتقطها ومشى، وعندما وصل إلى بيته فتحها فوجد رقم هاتف. ابتسم لأنها اختصرت عليه الطريق فلم يكن يعرف كيف يبادرها، وماذا سيكون رد فعلها؟ تناول عشاءه ثم استرخى،

كان بيته كبيت شيماء لا يختلف عنه إلا أنه أصغر مساحةً لكونه وحيدا استأجر هذا البيت لقلة إيجاره فهو لم يهتم أين يسكن بقدر ما اهتم أن يصرف ماله على الكتب الدراسية، وعلى أناقته أمام زملائه فقد كان يعرف جيدا دور الجاذبية في حياة الشاب فبدا أنيقا ذا ثقافة وحضور. اتصل بشيماء التي ردت عليه بحياء وكأنها لم ترم له الرقم، فأخذا يتحدثان ويتعرفان على بعضهما وأصبحا يوميا يلتقيان صباحا هي في طريقها إلى المدرسة وهو إلى جامعته وبقيا على هذه الحالة سنتين والتحقت شيماء بالجامعة فعزم على خطبتها ولكن أن يبقى الأمر سرا إلى أن يكمل دراسته. وافق والداها وكذلك أهله رغم تحفظهم. كتمت شيماء خبر علاقتها عن صديقاتها وتحديدا عن رابعة، فكانت تشعر بالسرور أن لديها سرًّا تخفيه عن رابعة بل إنها تشعر بالغبطة عندما تجد رابعة تهتم بالشباب وتتمنى الحب فكانت تبتسم سرا بأن لديها الحب الذي تبحث عنه رابعة وكانت تنوي عدم إخبار رابعة حتى يتم الزواج ولكن وفاة والدها والحاجة كانت الدافع لتخبر رابعة. وجاء سعي رابعة لتوظيف مالك في وقته المناسب بعدما تأكدت أن علاقتها بمالك تسير نحو الأفضل نحو تأسيس بيتهما فلم يبق لمالك غير هذه السنة.

***

ومضت الأيام وكانت رابعة تفكر يوميا بمالك وتتمنى أن تراه يوميا وتلتقي به من دون وجود شيماء، فخاطبت نفسها: أعيش في غيبوبة الواقع، وأحلامي ترقد على كف فراشة. وأنت في رحلة تطوف في منامي، ولا تدعني أستريح حتى إن أغمضت عيني ولو ثوانٍ. أخذت تتقلب على فراشها حتى جفاها النوم إلى ساعة متأخرة فخطرت على بالها فكرة وعقدت العزم على تنفيذها غدا.

استيقظت صباحا وذهبت إلى جامعتها ثم أخذت سيارتها إلى المشفى ودخلت إلى مدير قسم التحاليل الطبية الذي رحب بها فبادرته بالقول: أريد أن أحضر يوميا للتدريب لمدة ساعتين ما بعد العصر.

- نعم آنسة رابعة ولكن ما زلت في سنتك الثانية، تحتاجين إلى سنة أخرى حتى تخوضين مجال التدريب.

- لا عليك أستطيع التعلم بسرعة لدينا أطباء وممرضات أكفاء يمكنهم تدريبي ومساعدتي.

- حسنا لا أستطيع منعك فالمكان مكانك، متى ستبدئين؟

- منذ اللحظة.

الفصل السادس

أصبحت يوميا تحضر إلى المشفى من الرابعة عصرًا حتى السادسة مساء وكانت ذكية وتعلمت بسرعة، رغم ذلك ظل خاطرها مشغولا بمالك الذي رآها أكثر من مرة وحياها من بعيد. حاولت بقدر ما يمكنها تجنبه لكي لا تفضحها مشاعرها عبر أي تصرف يصدر منها. تابعها عقبة ورآها وسأل عنها ووجد أنها تبلي بلاء حسنا وزارها أكثر من مرة واطمأن عليها. كان يشك بنواياها بالتدريب في هذا الوقت. لأنه يعلم طيشها وتهورها ورغبتها الدائمة بالتسلية واللعب حتى ولو بمشاعر الغير. أنهى عمله فخرج من مكتبه وخطر في خاطره أن يمر عليها.

***

شعرت رابعة بالإرهاق وهي تقف في غرفة التحاليل فأخذت نفسا عميقا وتركت ما بيدها وذهبت لتسترخي في مكتبها وأغمضت عينيها. أرادت النوم قليلا فلم تستطع فتململت على كرسيها فهفت على مخيلتها ذكرى مالك فأخذت تفكر به قائلة: هل لي بمساء أضيء عيني بنور عينيك. ثم تساءلت ماذا يفعل الآن. متى سيعود إلى بيته وعندما يعود ماذا يفعل، أين يتناول طعامه، أين يغسل ملابسه، كيف يتصل بشيماء، ماذا يقول لها.. أسئلة كثيرة راودتها. فتنهدت وعدلت من جلستها ثم سحبت الهاتف إليها ورفعت خط الهاتف واتصلت بمالك في مكتبه وطلبت منه الحضور.

- مالك هل تسمح لي أن أعزمك على فنجان قهوة في مكتبي.

- عفوا صعب علي أن أترك العمل الآن.

- لا بأس فقط بضعة دقائق.

تردد قبل أن يجيبها وشعرت بتردده ثم قالت: هناك أمر ضروري يخص شيماء.

- هل لي أن أعلمه الآن؟

- أفضل أن تأتي.

***

شعر أنها تجبره ليأتي إلى مكتبها، لم يستطع رفض طلبها لأنه ربما يسبب هذا الرفض خسرانه لوظيفته فهي التي وظفته ومنحته راتبا مغريا ولا يعرف ما الذي تريد منه يخص شيماء. وبعد دقائق حضر ووقف أمامها ولم يجلس فنظرت إليه بتعجب وضحكت قائلة: ماذا؟ هل تراني معلمتك لكي لا تجلس أو تستأذني بالجلوس.

فقال على استحياء: عفوا لم أقصد.

أشارت إليه برأسها قائلة: اجلس.

- حسنا ماذا تشرب؟

- لا شكرا هل تخبريني ما الأمر.

- لا ليس قبل ما أطلب لك شيئا تشربه.

- حسنا.

- رفعت السماعة وطلبت فنجانين لهما.

كان يشيح بنظراته بعيدا عنها واستشعرت ربما أنه يحبها لكنه يتجنب أن ينظر إليها لكي لا تفضحه نظراته فخاطبته قائلة: أحيط وجهي بإطار صورة حتى لا تتردد بأن تضع عينيك في عيني؟!

فجفل من حديثها ونظر إليها متعجبا ثم بادرته بسؤال:

- أخبرني هل أنت سعيد؟

لم يعرف ماذا يرد عليها فقال: سعيد بماذا؟

فضحكت بصوت عالٍ: ألا تعرف إن كنت سعيدا أم لا، ولماذا أنت سعيد؟

- عفوا ولكن أحمد الله فإن أموري تقريبا أخذت منحى جيدًا من الراحة والسعادة.

نعم. إذًا حدثني عن هذه السعادة.

تنهد بقوة. كان يعلم أنها معجبة به وأن قدومه ربما يكون مصيدة تريد أن توقعه بها، فتمالك أعصابه وقال: ما هو الموضوع الذي يخص شيماء؟

- حدثني عن السعادة أولا.

فتنهد قائلا: سعادتي مع شيماء فهي حبيبة قلبي ولن أجد امرأة أفضل منها مهما عرفت والتقيت وسأتزوجها قريبا.

- فهمت، وبعد لماذا أنت سعيد؟

- لأني سأتخرج وأيضا أعمل، فكما ترين كل سبل السعادة تحيط بي.

شعرت أنه أراد أن يثير غيرتها فقامت قائلة: حسنا علي الذهاب.

فاستوقفها قائلا: وماذا بشأن شيماء؟

فنظرت إليه ببرود: ماذا بها شيماء؟

- أخبرتني أنك ترغبين بالتحدث بشأن يخص شيماء.

- أنا؟

- نعم أنت.

- عفوا لا أذكر.

سبقته فتبعها متمنيا لو يخنقها لقلة مبالاتها واستهزائها به، أبطأت من مشيتها فلم تتح له التقدم، وفجأة تمايلت في خطواتها، فتراجعت خلفا عليه وسقطت.

صدم مالك من حركاتها وتلقائيا أمسك كتفها، فاقتربت منه أكثر والتصق ظهرها بصدره حتى شعرت بحرارة أنفاسه في وجهها حتى إنها أرادت الاسترخاء أكثر ثم جفلت وقالت له: عفوا وابتعدت عنه. مشت مبتعدة وتراجع مالك مرتبكا باتجاه آخر. فصدم بوجود عقبة حيث كان يتابعهما بنظراته فاضطرب مالك وتلعثم، فابتسم عقبة له بسخرية واستخفاف لأنه يعلم أنه بريء كبراءة يوسف. فتمتم قائلا: إن كيدهن عظيم.

تركه يذهب رغم أنه لم يغفر له تصرفه فهو يعلم ضمنيا مكايد رابعة فربما سيأتي على مالك يوم يشعر فيه بالحب تجاه رابعة ويترك شيماء لأجلها. فماذا تعني

شيماء أمام رابعة بجمالها ومالها ونسبها. فراقبه عن كثب إلى درجة أنه حمله فوق طاقته في العمل فوجده شابا مجتهد صبورا. فسأله متى خطوبته فأخبره أنها ستتم بعد أسبوع ويشرفه الحضور. لم يستطع عقبة كبح جماح فضوله للذهاب إلى بيت المنصوري لحضور مراسم الخطوبة.

***

وبعد يومين خرج من مكتبه إلى خارج المشفى فوجد رابعة قادمة من الخارج تحمل باقة ورد فسألها قائلا: لمن باقة الورد؟

- سأزور مريضة هل يزعج ذلك؟

- لا طبعا ولكن كوني حريصة.

- على من؟

- على قلبك ألا يدق في مكان آخر.

- قلبي يعرف متى يدق ولمن سيهب مفاتيحه.

- أخاف أن تسرق مفاتيحه.

- من يسرقها؟ من يجترئ على ذلك؟

فاقترب منها حتى كادت تتنفس بل إن حركته أثارت الانتباه قائلا وهو يشد على ألفاظه: أنا يا عزيزتي فصبر جميل وسترين.

ابتعد عنها فتنهدت ومشت مبتعدة عنه وركبت المصعد إلى الطابق الثاني عادت صديقتها المريضة بالزائدة الدودية. ثم خرجت ونزلت إلى الطابق الأرضي

وطرقت أحد الأبواب وفتحته ورأت مالك يجلس مع بعض الموظفين. فأشارت إليه أن يتبعها. زم شفتيه وأراد رفض طلبها ولكن أدبًا وخاصة أمام الموظفين الآخرين قام ولحقها. دخلت مكتبا قريبا فأشارت إليه أن يجلس وقالت ببساطة: اعذرني إن كنت تعاملت معك بشكل رسمي أمام الجميع.

استغرب من أسلوبها في الحديث فأكملت: عندي لك هدية أرجو أن تقبلها

- هدية؟

- نعم... هدية خطوبة... تفضل...

قدمت إليه ورقة فأخذها منها فقرأ ما جاء فيها فابتسم كثيرا وقال: أشكرك يا آنسة رابعة. فعلا لقد جاء بوقته زيادة الراتب. فشيماء سيسرها ذلك.

- نعم أحببت أن أهديك شيئا فلم أعرف ماذا، فقلت ربما إن أعطيتك شيئا آخر سترفضه ولكن أظن أن هذا جيد.

- نعم بل جيد جدا.

أخذت تنظر إليه بإعجاب وكأنه تمثال شمع لا يشعر بها فأدرك بل تأكد أنها معجبة به بل ربما تصرفها هذا ناتج عن حب فقال متداركا: هل ستحضرين حفل الخطوبة؟

فابتسمت بتهكم: وهل هناك حفل؟

- لا ولكن مجرد ارتداء دبل.

- أكيد سأحضر فشيماء عزيزة علي.

- جميل الآن أشكرك مرة أخرى إلى اللقاء.

خرج من المكتب وهو ما زال مأخوذا بها فهي جميلة جدا وتفوق شيماء جمالا وغنج وعطرها الذي داعب خياشيمه كان كالسحر الذي ملأ أحاسيسه رباه ما هذه المرأة وما الذي تريده مني. عموما طالما علاقتي بها لن تتجاوز العرف فلا بأس.

***

جلست رابعة في المكتب وحيدة تشعر بالغيرة تحرقها. لقد أحبت مالك بكل ما تعنيه الكلمة وحاولت استمالته بأساليب ملتوية وذلك عبر تشجيعه بعلاقته مع شيماء فكثيرا ما أخذته بسيارتها مع شيماء إلى حديقة السبعين أو إلى بعض المطاعم السريعة وكان يقبل نظرا لعشقه لشيماء ولأن شيماء هي التي كانت تطلب منه ذلك باستمرار ولم يستطع رفض طلبها وكانت رابعة تردد دائما حينما تراه قائلة في صمت: مساؤك حالة من العشق أذوب بها ولا يعلمها إلا أنت.

***

اتصل مالك بشيماء وأخبرها عن رابعة وزيادة راتبه فأغلقت شيماء الخط وجلست تفكر برابعة وبتصرفاتها التي جعلتها تتأكد بأن فعلا رابعة تحب مالك. خافت من الفكرة ولكن ثقتها بنفسها وبمالك جعلها تغض طرفها، وسألت نفسها: هل من المعقول أن يتخلى عني مالك لأجل رابعة؟ هل من المعقول أن تنظر رابعة لمالك؟ لا يمكن بل أنا متأكدة من ذلك فلن يسمح لرابعة الزواج من شاب كمالك مطلقا. وخاصة مع وجود عقبة. نبذت الفكرة من رأسها فابن عمها

يريد الزواج منها بعدما تنهي دراستها ولن يسمح لها أن تكون لشاب غيره." آه يا مالك سأنتظر قبلاتك هذه الليلة فقد أضعت لحافي في زمن النسيان. ولم يبق لي غير دفء أنفاسك.. يا ليتني لا أفقدها فقد تشتت أحلامي بين الرماد".

***

عادت رابعة إلى بيتها بعد ساعة فأخبرت أمها بالهدية التي قدمتها لشيماء ومالك فسرت بأن ابنتها انفتحت اجتماعيا وأصبحت أكثر كرما فقالت لها: ما رأيك لو أقمنا الحفل في منزلنا.

صدمت رابعة ولم ترد عليها ولم تنتظر رقية إجابة من ابنتها فرفعت السماعة لوالدة شيماء وأخبرتها بنيتها بأن تقيم لشيماء حفل خطوبة في منزلهم.

***

بدأ الجميع بتجهيز الحفلة وكانت رابعة تنفذ ما تطلبه والدتها بفرح زائف. لم يعرف عقبة ولم يلحظ شيئا إلا يوم الخطوبة حيث وجد ترتيبات لم يسبق له أن رآها فذهب إلى إيفا يسألها ما سبب كل ذلك. نظرت إليه إيفا وشعرت أنها لو تكلمت ستثير غضبه فقالت: لا أعلم اسأل سيدتي.

- لا تعلمين يا إيفا أو لا تريدين إخباري؟

- اسأل سيدتي.

- حسنا.

خرج من المطبخ واتجه نحو غرفة الجلوس ولم يجد أحدًا فترقى السلالم ووجد باب غرفة عمته مفتوحا فطرق الباب فقالت: ادخل.

- أنا عقبة هل تسمحين لي بقليل من وقتك المشغول استعدادا للحفلة؟

تقدمت ناحية مدخل الغرفة فوجدته واقفا ينظر إليها بغضب مكتوم فقالت: اعذرني يا بني نسيت إخبارك.

- كظم غيظه وسألها بهدوء: نسيتي إخباري بماذا؟

- حفل خطوبة شيماء ومالك ستكون هنا.

- شعر وكان الأرض تهتز تحته.. أراد أن يمد يده ليصفع زوجة عمه فتمالك أعصابه قائلا: خطوبة ممتاز، ومتى سيحضر العريسان؟

نظرت إلى ساعتها: بعد ساعتين سيكون الضيوف هنا، اذهب واستعد واعذرني مرة أخرى. ذهب وتركها وهي في حالة من النشوة أنها انتصرت عليه وغاظته بتصرفها بل باحتقارها له بأنه حتى إن كان يملك نصف البيت فلا كلمة مسموعة له.نزل إلى غرفته يلعن رقية وشيماء ومالكا ولم يترك شيئا حتى سبه. فجلس محاولا ضبط انفعاله.

***

توافد الحضور، فجلس الرجال في المجلس العربي والنساء في المجلس الآخر. قدمت شيماء أولا مع أهلها من محل التزين واستخدمت غرفة رابعة لترتدي ملابسها. حاولت رابعة أن تبدو هادئة رغم أنها ترتعش أحيانا، بل أحيانا أخرى تنتفض عضلات وجهها، وعملت على قدر استطاعتها أن لا يظهر عليها كل ذلك بل جسدت البرود أحيانا كثيرة. فكانت تذهب فتغلق على نفسها إحدى الغرف لتهدأ من الانفعال وتأخذ نفسا عميقا. وتخرج مبتسمة.

رأت شيماء وهي بأكمل زينتها فنظرت لها بعلو رغم أناقة شيماء وزينتها ولكن ترى بأنه مهما تزينت وارتدت شيماء فلا يليق بها.

زفت شيماء بفستان ذهبي اللون وعليه خمار من ذات اللون ونزلت مع زفه تصحبها وعبق المكان برائحة البخور والعود والفل. وقفت في مجلس النساء فتقدم مالك إليها وسريعا ما ألبسها خاتم الخطوبة وزين عنقها بإكليل من الفل، وهي بادلته ذات الشيء. أخذت لهما صور سريعة مع العائلة. ظلت رابعة تراقب مالكا بكثب فتنظر إليه ولا تنظر إلى غيره حتى إنها تمنت أن تكون عروسه وأخذت تخطاب نفسها "إنني كالعازفة على إيقاع الثلج صعب عليها الغناء وحيدة. أرهقها الوقوف. أذلتها الأشواق. تجمدت نبضاتها. كبيضاء الثلج أوقف تنفسها من تفاحة الموت. رقدت في انتظار قبلة على ثغرها ترد لها الحياة.". انتبه مالك إلى نظراتها فأشاح ببصره بعيدا عنها وأخذ ينظر إلى شيماء دون تحفظ من أحد. وانتهى الحفل وكان على الجميع العودة إلى بيوتهم فخرج مالك واتجه نحو عقبة يشكره إلى الضيافة فحرك عقبة رأسه ومط شفتيه يحدث نفسه قائلا: بل الشكر لصاحبة الجلال السيدة رقية هانم.

ثم نظر ناحية شيماء التي جاءت وعليها عباءتها وتتقدم نحو عقبة تشكره أيضا، فابتسم بهدوء ونظر إلى مالك الذي لم يستطع أن يرفع عينيه عن شيماء إلى درجة أن شيماء أنزلت بصرها استحياء، فابتسم عقبة لما رآه. انسحب مالك مع أهله وبقيت شيماء تنتظر أهلها. وكانت رابعة تقف بعيدا ترتدي عباءتها فانتبه لها عقبة ورأى أن في عينيها ألمًا أو دموعا تريد الانسياب، فتأكد من إحساسه بأن ابنة عمه مغرمة بمالك. انصرف الجميع وبقي واقفا في الصالة، فرأى رابعة تتحرك لتطلع إلى غرفتها.

فدنا منها يعيقها عن الطلوع إلى غرفتها ونظر إليها قائلا: أتحبينه؟

لم تجبه وأشاحت بنظرها عنه فأكمل: ولكنه يحبها.

فابتعدت عنه فدنا هامسا يداعب كتفها: وأنا يا عزيزتي أحبك.

فنغزت ونظرت إليه قائلة: ما أحقرك!

فضحك بصوت عالٍ وقال: شر البلية ما يضحك صديقة تحب خطيب صديقتها.

فمالت إليه لتصفعه، فبادرها بصفعة أوقعتها أرضًا.

تقلبت على الأرض وشعرت بالدوار بل بقطرات من الدماء تنزل من شفتيها. كانت صفعة قوية أخرج عقبة فيها كل غضبه. لم تجده عندما فتحت عينيها. أرادت الذهاب إليه لتقتله ولكن جسدها متعب من إرهاق اليوم ومن هذه الصفعة التي شلت قدرتها على الحركة. ماذا تفعل هل تجري نحو أمها المشغولة في الحديقة مع الخدم لرفع بقايا الطعام. أم تعود إلى غرفتها وكأن شيئًا لم يكن. رباه لو تعلم والدتها ربما أخذت سكينة من المطبخ وطعنت عقبة من دون تفكير. لا يمكن أن يحصل ذلك. قامت تشد جسدها المنهار وطلعت إلى غرفتها بصعوبة ودخلت حمامها واغتسلت، أصبح وجهها متورما. فماذا ستقول لأمها إن رأت التورم. استرخت على فراشها تفكر "بأن حشرة طائرة لسعت خدي. نعم ستصدقني فلن يتبادر في ذهنها أن عقبة صفعني".

***

مضى شهر على الخطوبة. اقترب الفصل الدراسي من نهايته. حاولت رابعة التركيز على دراستها رغم ذلك كان التفكير بمالك يشغلها فهي تقريبا أسبوعيا تلتقي به فتمر على شيماء وإحدى أخواتها البنات بسيارتها للتنزه، فيحضر مالك يجلس معهن، ومرات تحضر والدتها ووالدة شيماء معهم. كانت تراقب بصورة خفية مالكا وشيماء عندما يجلسان معا ويتهامسان.و كانت تتابعهما بنظراتها أينما ذهبا، وتترقب عودتهما. أدركت أن مالكا شعر بإعجابها به، ولكنه لم يحاول أن يفعل شيئا، بل أحيانا يتعمد لإثارة غيرتها بالتقرب من شيماء أكثر بالتغزل بها أمامها تحديدا. رغم أنها تبتسم بلطف وكأنها سعيدة لهما، إلا أنها تتمنى لو تخلع حذاءها وترميه به، فكرهت نفسها، وانتقدت غباءها بالتعلق بشاب كمالك، ولكن ما إن تلبث حتى تفكر وتقول ربما يريد إثارة غيرتها لكي يعرف كم تحبه هي وهو قد أحبها فعلا ولكنه لا يستطع تجاوز العرف بالتعبير عن مشاعره تجاهها. وخاصة إنها ذات مستوى مادي وأعلى منه رغم عراقة قبيلته فهو من أصول بدوية جنوبية. هل يعقل أن تتزوجه؟ لا يمكن مع وجود شيماء بل ستكتفي بحبه وستجعله يوما يعبر لها عن حبه.

الفصل السابع

مضت الأيام وانتهى العام الدراسي وكعادة شيماء اسمها موضوع في لوحة الشرف.نظرت إليه رابعة وخاطبت نفسها قائلة: قسما أن اسمي سيكون بجانبك يا شيماء السنة القادمة. رجعت إلى البيت وأخبرت والدتها بآخر علامة ظهرت وكانت: امتياز فأهدتها والدتها ساعة ثمينة. انبهرت بها كثيرا وقبلت والدتها فأخذت تزهو بها عند صديقاتها اللواتي سألنها من أين جاءت بها فأخبرتهن أن والدتها أوصت بها من سويسرا. فقلن لها هذا الآن وعند تخرجك ماذا ستهديك والدتك؟ فقالت بغنج: ربما طقم الماس وإن تزوجت فمؤكد ستهديني تاجا.

انتظرت أن تصارحها والدتها بشأن السفر وقضاء الإجازة الصيفية ولكن لم تفتح معها أي موضوع يخص ذلك، فسألت والدتها متى سيسافران؟ فأجابتها أنها لا يمكنها ذلك نظرا لانشغالها في معهد اللغات لأجل الدورات الصيفية حيث أن نائبتها الإدارية ستسافر هذا الصيف فعليها أن تكون موجودة لمتابعة العمل. فطلبت منها أن تسافر لوحدها. فرفضت والدتها قائلة: أكملي دراستك وخذي هذا الفصل الصيفي واقضي إجازتك هنا، رابعة كفاك دلعا وإسرافا.

استاءت كثيرا وشعرت بالضيق وأغرقت نفسها بالخروج يوميا مع صديقاتها وبمشاهدة الأفلام على جهازها المحمول في غرفتها. حتى سئمت فخرجت من غرفتها يوما. ونزلت إلى الطابق الأرضي. علمت بوجود عقبة في المجلس الأرضي فقدمت إليه تريد استفزازه عسى أن تخرج من الملل الذي تشعر به. فرأته يتابع الأخبار ويخزن القات.

نظر إليها من طرف عينه ولم يكلمها وأخذ يدندن الأغنية الحضرمية المعروفة لأبي بكر "ألم سر حبي " سر حبي فيك غامض. سر حبي ما أنكشف، أيش خلاني اعشق فيك والعشقة تلف، أيش أوقعني بالشبكة وأنا عيني تشوف، لا تعذبني وإلا سرت وتركت المكلا لك، إذا ما فيك معروف. أنت تحفة صاغها الرحمن من أغلى التحف. أنت في الدنيا قضية ما تحملها ملف أنت أغلى اسم في قلبي خماسي الحروف. مشت الهوينى وبدلال وهي تسمعه ترفع درعها الليلكي الذي أظهر عن فوطة حريرية مطرزة من الهند تناسب لون الدرع فجلست بغنج أمامه بصمت واسترخت في جلستها، فلم يعرها اهتماما فقالت: لم يقل خماسي الحروف بل قال رباعي.

لم يجبها فأخذت تنظر إليه وهو ملهي بتدخين نارجيلته وكأنه لم يسمعها فقالت: عقبة هل علمت ماذا أهدتني أمي؟

حبس ضحكته قائلا برقة: لا يا عزيزتي لا أعرف. ماذا أهدتك والدتك؟

- ساعة من الألماس.

- فهز رأسه بسرور مبتسما:جميل عقبال خاتم زواجك الماسي.

فنظرت إليه بغرور، ثم أشاحت بصرها نحو ساعتها قالت: أكيد أستحق أكثر، فعريسي لابد أن يكون بمستواي حتى يستطيع أن يجلب لي خاتمًا من الألماس.

أجابها بعد أخذ نفس عميق من نارجيلته وأمال رأسه للخلف: طبعا وأنا بمستواك يا عزيزتي ألا ترينني قد المقام وأنا ابن عمك وشريكك؟

- أنت؟!

- نعم أنا، ما هذا السؤال؟

- سؤال ماذا بماذا، وكيف تجرؤ أن تكلمني عن خطوبة أو زواج، بل وتقرر أنت وأعمامي تزوجي بك وكأنني بضاعة أباع وأشترى.

- لست بضاعة تشترى أنت مقامك من مقامنا.

- فإذًا اصرفوا عنكم فكرة زواجي منك.

- لا أستطيع يا عزيزتي اعذريني لا يمكنني.

- إن لم أوافق؟

- ستوافقين.

- ليس غصبا.

- بل غصبا.

- ويحك.

- بل ويحك أنت وتصرفاتك الرعناء ألا تخجلين أبدا ترمين نفسك بأحضان رجل تافه.

- أنا أيها الحقير.

- نعم وإذا كنت تظنين أنني لم أر تصرفك الأخير مع مالك فأنت مخطئة.

- لم أفعل شيئا.

بل فعلت وأنا هنا أنبهك أن صبري قد ينفد بأي وقت فكوني حذرة.

قامت تشتعل غضبا وتركته إلى غرفتها. تخاطب نفسها:يا إلهي ما هذا العقبة الذي يقف أمامي ويعد علي كل حركاتي ويحاسبني عليها. آه منك يا عقبة من أين طلعت لي؟

***

مضت الأيام وجاء الصيف فسجلت في الفصل الصيفي مادتين علميتين لكرهها الدراسة الصيفية لعدم قدرتها على التركيز فكل المغريات أمامها: سهرات، نزه إلى آخره. وفي ذات الوقت سيكون يوم ميلادها في بداية الشهر الثامن يقترب، فأخذت تشغل وقتها بالتفكير كيف تحتفل به، فعادت يوما من الجامعة وجلست إلى مكتبها تقلب أوراق مذكراتها، وتتذكر تفاصيل أيام ميلادها الماضية. فهي في هذا اليوم من كل عام إما تخرج مع والدتها وبعض من صديقاتها المقربات بالاحتفال به في أحد الفنادق وإما تكون في الخارج تحتفل به مع أصدقائها، ومرة ذهبت إلى عدن واستأجرت يختًا وأقامت عليه حفلة رائعة ومرة احتفلت به في القاهرة على نهر النيل على ظهر الباخرة الفرعونية. كان يومًا مجنونا بحق. أصبح الغالبية من الناس تنظر لها بحسد وأحيانا بشفقة لكونها تلعب بالمال من غير حساب وكما تشاء ومدللة أمها فإما يعود عليها بالنفع وإما سيكون ضررًا لها إن لم تحسن التصرف. رغم الدلال التي تعيش به فلولا غضب أعمامها وطمعهم لعاشت برغد لا يضاهيها أحد فيه. تمنت لو تذهب إلى عدن فهي تعشقها على الرغم أنها رأت شواطئ تركيا ومصر وأوروبا إلا أنها لا تشعر بالاسترخاء إلا في عدن وأثناء مناخها الشتوي البحري الدافئ. فتنزل البحر

وتسبح لعشقها للسباحة في بحرها خليج عدن الممتد إلى بحر العرب. وتلف بسيارتها وتصعد المرتفعات فتتأمل السواحل المتعددة الملامح من خليج الفيل إلى الشاطئ الذهبي. فكل ساحل في عدن متميز عن الآخر بطبيعته، وتتأمل غروب الشمس وتشعر بهدوء نفسي حتى يجعلها تغفو قليلا وتحلم بالحب.

كانت تزور منتجع شاطئ العروس بالإضافة إلى المنتجعات السياحية المختلفة. فالناس هنا بسطاء تشبعوا حضاريا من عدة ثقافات من الإنكليز والهنود والأفارقة وغيرهم. كانت قبلة العرب والغرب قبل أربعين عاما.قصت لها والدتها التي تربت في عدن الكثير عنها بل والدتها أصلا مولودة فيها. فقد كانت يوما من الأيام حاضرة العرب.

فالنزول إلى عدن الآن على الرغم من حرارة جوها سيجدد نشاطها وسيساعدها لتستعد لامتحانات الفترة الصيفية. حاولت الذهاب إليها ولم تتمكن فلم تجد من يرافقها حتى إنها فكرت بشيماء ربما تقبل فاعتذرت شيماء منها نظرا لانشغالها بدروسها فخاطبت رابعة نفسها قائلة: بل لأنك لا تريدين الابتعاد عن مالك لو لأيام.

لم تحاول أن تحتك بعقبة بعد الموقف الذي جرى بينهما. ما زالت تتذكر الصفعة القوية ولمسة يده على خدها وتتوعد أن ترد له يوما هذه الصفعة بألف صفعة. وضعت دفترها جانبا وأرخت رأسها على المقعد وأغمضت عينيها وسألت نفسها لماذا لم تحب إلى الآن؟ لماذا لم تلتق بعد بالشاب المناسب؟ كل صديقاتها لديهن أحباء والبعض منهن مخطوبات إلا هي. حاول بعض الشباب التقرب منها ولكن كل شاب تراه دون مستوى تطلعاتها فتعجبت من التناقض

الذي تحس به. كيف تعشق مالكا وهو دون تطلعاتها في المقابل رفضت خطّابًا من عائلات قديرة متعللة أنها تريد إكمال دراستها، وهذا العقبة الذي يقف على رأسها فإن وافقت لن يوافق هو على تزويجها فهو يريدها بل يعلن للآخرين أنها له. وفجأة قامت قائلة: سأقيم حفلة كبيرة جدا وسآتي بفرقة موسيقية.

***

رقصت وطربت وضحكت وزين البيت بأنواع شتى من الزينة وباقة الورد والطاولات. الاحتفالات في حديقة البيت بجانب المسبح والفرقة الشبابية العازفة تغني في غرفة خاصة فلا يرون النسوة. فقط يوصل أصواتهم إلى الحديقة عبر سماعات كبيرة. فأخذن الفتيات يطربن ويتراقصن ويأكلن. ارتدت ثوبا قصيرا برتقاليا من الستان الفاخر مطرزا بحزام عاري الكتفين أظهر جمال كتفيها.

***

وقف عقبة يراقبها وهو يقف في غرفة الطعام مفتونا بجمالها. لم يثنه وجود صديقاتها والغالبية منهن محجبات على أن يقف ويشاهدهن فلم تكن تعنيه أية منهن غيرها وكأنها الوحيدة التي تقف في الحديقة فبدت كشمس مضيئة في ليلة ساحرة. فشرد بعيدا قائلا: إن لهذا المساء عبقا خاصًّا.. أنت تعلميه وأنا في انتظاره.فأخذه خياله أنهما معا دون الحاضرين في هذه الغرفة يطفئ معها الشموع ثم يدنو منها ويلبسها خاتما ثم يزيح شعرها جانبا يضع قلادة من الألماس في جيدها ويقبل عنقها من الخلف فتنظر إليه فترنو إليه فيضمها إليه بكل قوة ويراقصها.

أخرجه من شروده دخول والدتها فأرادت معاتبته لوقوفه ونظره للفتيات فنظر إليها فاضطربت لقوة نظراته التي أخرستها فانسحب وخرج من الغرفة ودخل غرفته وبقي فيها. يلعب بجهاز الحاسوب ومضى الوقت فانتبه لخروج الحاضرات واحدة تلو الأخرى حتى انتصف الليل وشعر أنهن جميعا انصرفن وعدن إلى بيوتهن فأراد الخروج من غرفته فأثار انتباهه قدوم سيارة في وقت متأخر تدخل ساحة البيت فأخذ يراقب.

نزل مالك من السيارة التي استأجرها ليعود بشيماء ووالدتها وبعض إخوتها وتجول قليلا وأخذ يدخن ثم انتبه إلى شيماء ووالدتها وإخوتها تتبعهم رابعة وهي تضع عباءتها على كتفها وشعرها مفتوح، وباستحياء ظهر من حركة رأسه بادلها السلام ومد يده لها بكيس هدية، فنظرت إليه وابتسمت له شاكره. ثم همست شيماء لرابعة فابتسمت رابعة إليها فقبلتها شيماء وتمنت لها دوام الصحة والخير، ثم ركب الجميع وحرك مالك سيارته وخرجوا من البيت.

ظلت رابعة وكأنها نست نفسها. وما زال عقبة يراقبها من دون حركة فشعر وكأنها استيقظت من غفوة فاستدارت لتدخل البيت. فخرج من غرفته وذهب إليها فرآها تدخل فتراجعت للخلف. فابتسم إليها بخبث قائلا: ماذا بك؟

- لِمَ تسأل؟

حاول منعها من التقدم فتحركت يمنيا فتبعها فاتجهت شمالا فتبعها. فصاحت به: عقبة بالله عليك ما الذي تريده مني هل تريد أن تعكر مزاجي هذه الليلة.

- لا يا عزيزتي أريد فقط أقول لك كل عام وأنت بخير.

- شكرا لك والآن تصبح على خير.

تركها فمشت مسرعة الخطى لتصعد إلى غرفتها فقبض على ذراعها وسحبها إليه وقربها منه. فكتمت صيحة لكي لا تزعج والدتها وحاولت تمالك أعصابها. فاقترب منها قائلا: وهل هناك تهنئة من دون هدية؟

أرخى يده منها فابتعدت قائلة: حسنا وأين هديتك؟

أخرج من جيبه علبة مخملية. أزاح غطاءها الذي أظهر عن خاتم من الذهب مطعم بالألماس. انبهرت لرؤيته فحبست سرورها حتى لا تشبع غروره. فمدت يدها من دون مبالاة لتأخذه من يده ولكن أغلق العلبة وأرجعها إليه فعبست قائلة: لماذا فعلت ذلك؟

ابتسم قائلا: إنه خاتم خطوبة يا عزيزتي وليس هدية عيد ميلاد.

- حسنا؟

- إن قبلتي بي زوجا سألبسه لك الآن.

- إن لم أقبل؟

- سألبسه لك أيضا.

- مغرور.

- نعم هذه مشكلتي التي لا أجد لها دواء.

- تصبح على خير فما عندي يغني عن ألف هدية منك.

- قصدك هذا الكيس الذي بيدك.

- هذا لا يعنيك.

- أعطني لأراه.

- لن أسمح لك.

انصرفت وتركته فلحقها وشدها من ذراعها وأخذ منها الكيس بقوة فوجد فيه حجرًا من الفخار مكتوبًا عليه "عيد ميلا سعيد"، فأخذه وقذفه إلى أقرب جدار فتحطم حتى أصبح أشلاء. وقفت رابعة مصدومة وشعرت بالعبرات تخنقها وأخذ نفسها يصعد ويهبط. وكادت أن تجن. أرادت قتله. لابد من قتله. فتراجعت فوجدت آنية زجاج فحملتها ورمتها عليه فمال مبتعدا فأصابت الباب فتحطمت إلى قطع صغيرة قامت الخادمة من النوم فرأت ما رأت. وقامت رابعة لتهرب إلى غرفتها فشدها من شعرها قائلا: صدقا لو أصبتني لكان اليوم هو آخر يوم في عمرك وأنا الذي سأدفنك بيدي هذه وأشق قبرا لك في هذا البيت ولماذا أنتظر سنتين وأتعب نفسي وأتزوجك فلأخذ مالك ومال والدتك منذ الآن.

أصبحت تلهث من الرعب والتعب وقالت محاولة استعادة قوتها رغم أنه ما زال يشد رأسها: وأخيرا اعترفت بنواياك أيها الحقير لا تخاف لن أموت حتى إن دفنتني حية. سأطردك من البيت فلن تبقى فيه لحظة واحدة وهذا عهد على نفسي.

وفي أثناء ذلك نزلت والدتها من غرفتها بعدما سمعت بالجلبة ورأت رابعة بين يدي عقبة. لم تستطع تمالك أعصابها فصرخت بصوت مكتوم: رابعة

وسقطت مغشية عليها. وتدحرجت من على الدرج إلى الأرض. صاحت رابعة فسحب عقبة يده منها وظل واقفا من الصدمة لا يعرف ماذا يفعل فقد أدرك خطأه.

اقتربت رابعة فوجدت أمها لا تقوى على الحركة، فصاحت: إيفا أرجوك ساعديني.

تقدمت إيفا إليها وحاولا إيفاق والدتها ولكن لم يتمكنا. فقالت رابعة: أرجوكِ اطلعي اجلبي لي عباءتي وعباءة أمي.

تقدم عقبة إليها وقال: دعيني آخذها إلى المشفى.

- قف عندك ولا تلمسها فهي أشرف منك يا قذر.

تراجع إلى الخلف وجلس على الأريكة ورفع هاتفه واتصل بالمشفى أن يجهزوا غرفة الطوارئ وأخبرهم بحالتها. جاءت إيفا وحاولت رابعة مع إيفا على حمل والدتها ولكن نظرا لثقلها فكلما رفعاها خرت قواهما وخاصة مع توتر رابعة وحزنها واضطراب إيفا فجاء عقبة وبصوت مرتفع قائلا: ابتعدا. حمل زوجة عمه وقال بلهجة آمرة لرابعة اذهبي لسيارتك وافتحيها.

أسرعت رابعة الخطى وأشغلت سيارتها وجاء عقبة يحمل والدتها ووضعها في المقعد الخلفي. فتحت إيفا السيارة لتجلس بجانب رابعة فاقترب منها عقبة قائلا: قودي أنت السيارة.

- أنا؟

- نعم فحالة رابعة لا تسمح بذلك أظنك تعرفين.

- نعم أعرف.

مالت إيفا إلى رابعة وأشارت لها أن تقود هي السيارة بدلاً عنها فطاوعتها رابعة وغيرت مقعدها. ركبت إيفا السيارة وحركتها.

مشى سريعا نحو سيارته ولحق بهن. إلى أن وصلوا جميعا إلى المشفى فأدخلت الطوارئ حيث تبين أنها تعاني من الفحص الأول من جلطة دماغية. ومرت الساعة حتى تأكدوا من ذلك فأدخلوها غرفة العناية المشددة. بقيت في العناية حتى فاقت وتعافت تدريجيا مع الأيام. كانت الاختبارات الصيفية بعد بضعة أيام فلم تستطع رابعة أن تفتح كتابا ولكن قررت أن تخوض الامتحان مهما حصل فهي لا تريد أن تضيع تعبها.

ومضى أسبوعان وما زالت رقية في المشفى وقد أصبحت بأفضل حال ولكن ما زال جانبها الأيمن مشلولا نسبيا فنصحها الطبيب أن تذهب بها إلى مصر في الإجازة أو إلى الأردن للعلاج الطبيعي وفي ذات الوقت تغير جوًا.

تجنب عقبة الاحتكاك بها في الأيام الأولى ثم جاء يسأل عنها وكان الوضع مؤلما لم تسمح لعقبة أن يدخل ليرى والدتها فردت عليه قائلة: يا قاتل أمي هل تريد قتلها مجددا.

فانسحب عقبة من دون أن ينطق بكلمة عذر أو عتاب أو وداع. ومن هذا اليوم لم تر عقبة حيث سمعت بسفره إلى بريطانيا. استرخت لعودتها إلى البيت مع أمها من دون وجود عقبة وكأن الجو أصبح أكثر صفاء وهدوءًا.

زارتها شيماء ووالدتها وأيضا مالك للاطمئنان على والدتها في المشفى. وفي البيت زارها الكثير من الضيوف والأهل وحاولوا جميعا مواساة رابعة وشد عزيمتها. فأخبرتهم بنيتها للسفر إلى مصر.

وقبل سفرهما بأيام زارت شيماء رقية وجلست بجوارها واقتربت منها فضمتها رقية إلى صدرها وبكت شيماء بين أحضانها فهي تعتبر رقية أمها الروحية فقالت رقية: لا تقلقي عليّ يا عزيزتي سأكون بخير. ما رأيك لو ذهبتي معنا إلى مصر؟

- شكرا لك معي العديد من الالتزامات فأنا أجهز للبيت الذي سنسكن فيه.

- حسنا لا تشتري شيئا من الملابس سأجعل رابعة هي التي تشتري لك من مصر كل ما تحتاجينه وهذه هديتنا لك.

- أشكرك لا أعرف ماذا أقول لك.

- لا تقولي شيئا فقط اهتمي بنفسك وكوني عروسا رائعة أريد أرجع من مصر وأحضر يوم زواجك.

- ستحضرين وستكونين في أحسن حالة.

- إن شاء الله أشكرك يا عزيزتي.

أخذت رابعة تراقب المنظر وتشعر بالغيرة من شيماء فخاطبت نفسها: يا إلهي من أين جاءت هذه الشيماء حتى تريد تأخذ حب أمي مني لا يمكن أن أقبل بذلك.

فنظرت إليها والدتها قائلة: رابعة اسألي شيماء ما يلزمها وسجليه عندك.

ابتسمت رابعة قالت بمرح ظاهري تخفي خبثا: شيماء عزيزتي كنت أود أن تأتي معنا.. وأكملت وهي تشد على ألفاظها: ولكن كما قلت ظروف تجهيز فرحك تمنعك عموما لا بأس الأيام القادمة ستتيح لك السفر مع مالك زوجك.

الفصل الثامن

سافرتا بعد ثلاثة أيام ووصلتا إلى القاهرة فأدخلت رقية إلى المشفى لتتلقى العلاج الطبيعي وفي أثناء ذلك زارها الكثير من الأصدقاء والأهل المقيمين هناك والزائرين. انشغلت رابعة في البداية مع والدتها وضيفوها، وبعد إلحاح من والدتها خرجت إلى السوق للتبضع لشيماء. كانت تختار ما يناسبها هي من ألوان وتصاميم وليس ما يناسب شيماء، فقط تختار من القياس ما يناسب شيماء. وكانت تقيس كل شيء تشتريه وترى نفسها بالمرآة وتتخيل أن مالك ينظر إليها ويتغزل بها، فتشبع غرورها بهذه الصور الخيالية. عادتا إلى صنعاء بعد شهر وحالة والدتها جيدة رغم ذلك لم يسمح لها بالجلوس كثيرا فنصحها الأطباء أن تستلقي دائما على ظهرها فالوقعة أثرت على عمودها الفقري الذي يحتاج للراحة الدائمة.

وضعت رابعة رأس والدتها على فراشها وسحبت الغطاء لتدفئها فسألتها: رابعة هل اتصلتِ بشيماء؟

- لا لم أفعل.

- كيف لم تفعلي أخبريهم بوصولنا وجهزي لها أشياءها.

وبضيق نفس اتصلت بشيماء متمنية الذهاب إلى المشفى لرؤية مالك ولكنها مجهدة كثيرا نفسيا وجسديا. فسألت شيماء أن تأتي وترى وتحمل معها هداياها فبادرتها شيماء بالقول إن عقد قرانها هي ومالك تم قبل يومين.

تصلبت يد رابعة الممسكة بسماعة الهاتف وقالت بصوت مكتوم: مبارك عليكما. ثم تداركت قائلة: عفوا إنني أشعر ببعض التعب.

- كيف هي خالتي؟

- الحمد لله فقط ادعي لها.

- فأنا أدعو لها من دون أن تسأليني فلن أنسى فضلها علي يوما سوف نزوركم اليوم للاطمئنان عليها.

أغلقت الخط وهي تشعر بالدوار وبخفقان في قلبها، لم تستطع الوقوف أكثر فجلست على أقرب كرسي تشعر بالاختناق وأصبح تنفسها يصعد ويهبط بصعوبة. أرادت البكاء، ولكنها لم تستطع فانسابت منها العبرات فمسحتها بيدها على عجل وذهبت إلى الحمام وأخذت نفسا عميقا وغسلت وجهها لا تريد أن تراها والدتها في تلك الحالة تخاف أن تلحظ والدتها عليها شيئا فتسوء حالتها الصحية. خرجت وقالت: إنني أبدو كورقة خريف ملقاة على حافة الطريق لست إلا. لفكر ينتظر الغيث. لقلب أتعبه الشوق. لنفس سكنها الحزن. لساقين أثقلهما الوجد. لذراعين أرهقهما الدنف. لعينين علقهما الهوى.لجفون زينهما الأرق.لعبرات غلفها الكمد. لوجنتين لونهما الكلف. لشفتين أحرقهما الحنين. لتباريح تضرب الحنايا. ولجسد بالغمرات كفن.رباه ساعدني ما هذا الابتلاء.

سيطرت على انفعالها وحاولت شغل وقتها بالجلوس على الإنترنت والتحدث مع أصدقائها محاولة تناسي هذا الخبر الذي شعرت وكأنه مزق قلبها نصفين، ومضى الوقت ولم تشعر به حتى حانت الساعة الرابعة عصرا حتى قدمت شيماء ففتحت لها إيفا الباب كانت ترافقها أختها مريم ووالدتها. جلسن

جميعا في المجلس الأرضي حيث وضع فراش بجانب أحد الأركان لتنام عليه رقية عندما يأتي الضيوف لزيارتها.

حز الجميع أن يروا المرأة القوية تتراجع صحتها من سيئ إلى أسوأ، فلم يجدوا غير الدعاء متمنين لها الشفاء التام. جملت رقية جو التوتر الذي ارتسم على الجميع عندما استلقت على الفراش قائلة: إنني كالمرأة النفاس التي تستقبل زائريها في أيام الأربعين ما بعد الحمل. ضحك الجميع. حاولت أن تشاركهم رابعة ولكن حقيقة لم تعد تقوى على إتيان أي ردة فعل وبقيت تراقب بخمول. فرحت شيماء كثيرا بهداياها وقبلت مرارا رقية واقتربت من رابعة وضمتها إليها وقبلتها وما أن ابتعدت حتى مسحت رابعة قبلتها من على خدها بيدها.

انصرف الجميع وودعتهم رابعة عند الباب. وفجأة شعرت بالوحدة تغمرها فرأت سيارة عقبة وشعرت بالشوق إليه، فتعجبت لماذا تفتقده وهي تكرهه. بل يثير في نفسها الاشمئزاز هل لأنه ترك في البيت فراغا بعدما كان يشعل البيت حريقا. لا تعلم حقا.

ودت أن تكسر له سيارته التويوتا الجيب وكأنها تريد ضربه وتفرغ حقدها الدفين عليه. كان سفره المفاجئ إلى بريطانيا وبعد ذلك إلى ألمانيا يدعو للدهشة فكل الذي عرفته من صديقه إنه سافر لشراء بعض المعدات الطبية للمشفى.

و في اليوم التالي زارت المصرف وزارت المشفى والمعهد وراجعت كل ما تملكه لم تشعر أن هناك ما ينقص من أموالهم بل تزيد يوما عن يوم. استرخت وقالت: لابد أن تزيد فما الذي سيشبعك يا عقبة غير الزيادة. لم يأت أحد من أعمامها للاطمئنان على رقية غير إخوتها أخوال رابعة وبعض أبناء عمومة رقية.

والقليل من أساتذة الجامعة وبعض زوجات السفراء وأقاربهم. كانت رقية لا تزال تتمتع بحضور اجتماعي قوي رغم ابتعادها عن السياسة إلا أنها تواظب على حضور فعاليات النادي الدبلوماسي حيث الاهتمام بالمعارض المختلفة والسوق الخيري بإشراف دبلوماسيات يمنيات وزوجات الدبلوماسيين الأجانب في اليمن بالإضافة إلى اهتمامها بالاطلاع على أهم المستجدات وذلك بالنقاش مع أصدقائها من أصحاب الفكر السياسي والأدبي.

جلست ذات مرة وحيدة في غرفتها بعدما انصرفت عنها رابعة تشعر بالخوف على ابنتها كثيرا. ماذا يمكن أن يحصل لها بعد وفاتها. فأخوالها منشغلون عنها وأعمامها حاقدون عليها ولا يوجد لها أخ يسندها غير ابن عم يحرق الأخضر واليابس ويريد ابتلاعها.

نظرت إلى ساعتها وأخذت هاتفها النقال وطلبت المحامية "أمة السلام الأصبحي" محاميتها الخاصة. فوعدتها أن تأتي لزيارتها غدا عندما تفرغ من مهماتها المكلفة بها، فأصرت عليها رقية أن تزورها اليوم. أصبح عندها قلق خفي أنها لن تعيش طويلا. أغلقت الخط. واتصلت بإيفا التي جاءتها فطلبت منها أن تأتي إليها بورقة وقلم.

جاءت إليها إيفا بورقة وقلم. كتبت رقية بصعوبة وصيتها أن كل ما تملكه ومسجل باسمها يذهب إلى ابنتها رابعة بيعا وشراء، وطلبت من إيفا أن توقع عليها وسألت أن تأتي بالحارس واتصلت بشخص ثالث ليتم التوقيع على هذه الوصية كانت قلقة أن لا يكمل اليوم إلا وقد وفاتها المنية.

مضى اليوم وهي تسبح بالمسبحة مترقبة أن تسلم روحها إلى بارئها فغفت قليلا واستيقظت عند دخول المحامية.

كانت "أمة السلام" محامية في التاسعة والعشرين سمراء طويلة القامة عيناها ناعستان تعمل محامية في مكتب والدها المحامي الشهير عبد الناصر الأصبحي والذي يعمل أستاذا جامعيا وعميد كلية الشريعة والقانون في جامعة صنعاء. ولدت في صنعاء وعاشت بينها وبين الحديدة. وعلى الرغم من صغر سنها وخبرتها إلا أن رقية تثق فيها كثيرا نظرا لقوة شخصيتها ورجاحة عقلها. ولذلك كانت تطلب مرارا من رابعة باستمرار مصادقة "أمة السلام" ومرافقتها، فأبت رابعة وكانت تقول عن "أمة" أنها فتاة معقدة، وتنظر إليها بتعجب كيف لفتاة تبلغ هذا السن من دون زواج فكانت تنظر إلى نفسها في المرآة أحيانا وتقارن نفسها بالأخريات وتتغنج بجمالها وترى أن كل الشباب سيتساقطون أمام أقدامها فجاء هذا العقبة وكأنه عقاب نزل عليها. لم تستجب رابعة لأمها وظلت ترافق صديقاتها في المدرسة ومن ثم في الجامعة وعلى بعض من تعرفت عليهم في الخارج، ولم تهتم يوما أن تصاحب "أمة السلام". على الرغم من ثقافة رابعة نظرا لعشقها للقراءة والكتابة إلا أنها ظلت محبوسة غرور ذاتها وحاجتها المرضية في التملك وظلت على تواصل مع صديقات مقاربات لها سنا ومركزا.

***

شعرت بحركة ما في غرفتها ففتحت عينيها ورأت "أمة السلام" تجلس على كرسي بجانبها كعادتها هادئة جميلة تريح النظر لمن يراها تشعره باطمئنان وأن الدنيا ما زالت بخير وأن الحياة ما زال يوجد فيها أناس طيبون يسعون إلى حبك

وخدمتك من دون مقابل. نظرت لـ"أمة السلام" قائلة: جيد أنك هنا والأجمل أن روحي لا تزال في جسدي.

ابتسمت لها "أمة السلام" قائلة: ستعيشين طويلا وستفرحين برابعة قريبا.

تنهدت قائلة: أتمنى ذلك. ثم صمتت.

فسألتها أمة السلام: ماذا بك؟

أشعر بالقلق على رابعة كثيرا فهي غير مستقرة ولا تزال طائشة وأحيانا أشعر أنها تكذب علي في بعض الأمور وأرى مؤخرا أن هناك ما يضايقها ولكن لم تصفح لي عنه. أتدرين ما أفكر به؟

- ماذا؟

- أن رابعة تفتقد للحب وأنها تتمنى لو كانت هي مكان شيماء في فرحتها.

- نعم رغم الدلال الذي تعيشه إلا أنها تفتقد للعاطفة ولكن وجودك معها سيكون دائما داعما لها.

- يا عزيزتي أي وجود وأنا نصفي مشلول ولا أعرف إلى متى سيستمر العمر.

- ستعيشين، ما زلت صغيرة وستتجاوزين أزمتك.

- يا عزيزتي الإنسان عندما يكبر بالعمر ويمرض لا يتعافى بسهولة وسن الخمسين فترة محرجة لأي إنسان فإن تجاوزها من غير مرض يدل على أنه سيعيش طويلا.

- من أين تأتين بهذه الأفكار؟

- أقرأ كثيرا.

- أحيانا كثرة المعلومات توتر الإنسان وتجده أكثر حرصا فلا يعيش بصورة طبيعية.

- صدقت عموما لا أريد أن أؤخرك افتحي الدرج الذي بجانبي ستجدين مغلفا أخرجيه.

أخرجته وأعطتها إياه. فمسكت المغلف بيد متعبة وفتحته وأخرجت وصيتها وأعطتها لأمة السلام التي أخذتها وكتبتها على ورق رسمي، ووقعت عليها رقية بيد تعبة، ثم قالت أمة السلام: لابد من الشهود. أما يزالون موجودين؟

- نعم موجودون.

رفعت السماعة لإيفا التي حضرت مرة أخرى مع الحارس والرجل الآخر. وما إن تم ذلك وخرجوا، فربتت "أمة السلام" على يدها قائلة: لا تقلقي غدا صباحا سأوثق الأوراق وسيكون كل شيء سليماً.

استرخت رقية وبعد يومين قدمت "أمة السلام" لزيارتها وأعطتها نسخة من وصيتها واحتفظت بنسخة أخرى.

فسألتها رقية فجأة: ما زلت تحبينه؟

نظرت إليها "أمة السلام" قائلة: لا.

- إذًا يا ابنتي لماذا ترفضين من يتقدم لك، والدتك تشتكي كثيرا.



- لا أعرف يا خالتي. صراحة لا أحب الزواج التقليدي وكل من أعرفهم متزوجون ومسألة أنني أتزوج من رجل متزوج فهذا أمر صعب علي وأعتبر نفسي أنني ما زلت صغيرة.

و لكن يا صغيرتي نحن في اليمن وتعلمين أن الشباب يتزوجون في سن مبكرة والفتاة إن لم تتزوج مبكرا تذهب منها الفرص الجيدة. إلا إذا أحبت شابًا غير يمني أو يمنيا يعيش في الخارج. تزوج هو وترككِ وأنت بقيت كما أنت؟

- وهل ستتركين رابعة له؟

- لعقبة؟

- نعم ومن غيره.

- ماذا سأفعل، فإن زوجتها من غيره سيزلزل الأرض وأنا لم أعد قوية ولكن رابعة فتاة قوية تستطيع حتى إن لم أكن موجودة معها ألا تجعله يسيطر عليها، وهذا ما رباها عليه والدها أن تكون قوية لا تهاب أحدًا إلا خالقها. عموما اتركينا منها. عزيزتي انسي الماضي وانظري إلى نفسك فالعمر يجري. وعموما أنا مؤمنة بالقسمة والنصيب فقد يأتيك من يستحقك بعد طول انتظار.

***

ومضت الأيام وصحة رقية تتأرجح ما بين الشفاء والمرض واقترب موعد زواج شيماء وكل شيء جاهز واقتربت إجازة نصف العام. كانت رابعة في تلك الفترة مشغولة ما بين دراستها ومزاولتها لعملها في التحاليل الطبية مجال

تخصصها الدراسي. التقت هذه الفترة بمالك كثيرا وخاصة في بهو المشفى أو بالمقهى الخاص. رغم توقها أن تدعوه إلى فنجان شاي أو قهوة إلا أن كبرياءها منعها. كانت كثيرا ما تتجاهله رغم أنها تتمنى أن ترتمي بين أحضانه. قرر إقامة حفل الزواج في صالة مطعم الحمراء وكان الجو بدأ يميل إلى البرودة الشديدة نظرا لقدوم فصل الربيع. رغم برودة جو صنعاء المعتاد طيلة السنة.

لم تسمع عن عقبة إلا أنه يعود إلى صنعاء وما يلبث طويلا حتى يسافر مجددا وسمعت أيضا أنه فتح له عملاً خاصًا به في الحديدة ولم يأت إلى صنعاء. فشعرت بالراحة لعدم وجوده فهي لا تعرف ماذا تفعل لو رأته فهي تكره تصرفاته الرعناء.

لم تر مالك طيلة تلك الفترة وكانت تسمع أخباره بين الفينة والأخرى رغم كل شيء إلا أنها ما زالت تفكر ومشغولة الخاطر به. فخاطبت نفسها قائلة: وماذا بعد يا رابعة أخرجيه من رأسك. ولكن كل يوم تشعر أنها لا تقدر على نسيانه، فتوقت لرؤيته فقررت أن تزوره في مكتبه ولكن لم تستطع أن تلتقي به، فقد أخبروها أنه نزل إلى عدن لرؤية أهله وقد أخذ إجازة لمدة شهر لزواجه.

ظلت على حالها تلهي نفسها بدراستها وبزيارة صديقاتها أو الخروج معهن أو الجلوس مع أمها أو في غرفتها تكتب ما تشاء على أوراقها.

جلست مع والدتها تدلك لها ظهرها فقالت لها والدتها: متى يا ابنتي سأفرح بك؟

تنهدت رابعة قائلة: وكيف سيتم ذلك وعُقْبة واقف عَقَبَةً في طريقي؟

- كوني صبورة وتخرجي من جامعتك وأديري أموالك. توكلي على

ربك ووثقي علاقتك بأمة السلام فهي تحبك وتعتبرك أختا لها ولن يستطع أحد إجبارك على الزواج من عقبة أو غيره.

ثم عدلت رقية من استلقائها على الفراش فأمسكت بيد ابنتها قائلة: رابعة اريد أن أفرح.

- كيف يا أمي ما الذي تريدينه أن أفعله لك حتى تفرحي.

- فلنعمل حفل حناء أو غسل لشيماء في البيت.

فعضت رابعة على شفتيها قائلة: ببيت من؟

فقالت فرحة: في بيتنا طبعا.

كان ذلك آخر ما تمنته رابعة ولكن لم تستطع رفض أي طلب لوالدتها وخاصة في حالتها المرضية هذه وكان لها ما أرادت وجاء الحاضرات واحتفلن. في البداية دخلن إلى شيماء وزفروها أي ألبسنها دثارًا أخضر مطرزا، وغطين وجهها بوشاح أو ما يعرف بالقرمة ثم أخذن شيماء لتجلس قليلا معهن واقتربت منها المخضبة التي ستزين يدي شيماء بالحناء فرسمت على كفها وذراعها أشكالا جميلة وأخذت الحاضرات على دقات الطبل بالرقص والغناء. "حلا كله حلا. حلا حلا تستاهل كل عشانك يا شيماء مالك يهنا لك يا شيماء". في العادة تكون ليلة الزفة تسبق ليلة الغسل لكن بحكم أنه يقام في بيت رقية تم اختصار الوقت وقمن بهما في ليلة واحدة.

كانت رابعة تستمع وهي تحمل في يدها صينية عليها البخور والعطور ومساحيق التجميل والدرع الذي سترتديه شيماء في الحمام لتغتسل وتغير ملابسها

وتعطر. أخذت تردد معهم. تمنت أن يكون اسمها هو الذي يقال بجانب مالك وليس شيماء، ولماذا يتم الاحتفال بشيماء في بيتها كل مرة.لماذا يا أمي تفعلين بي كل ذلك؟ ألا يكفي أن شيماء أخذت مني حبيبي فوق ذلك سمحت لها أن تعمل الغسل في بيتنا. آه.

وبعد دقائق بعدما نشفت الحناء وحان الوقت لغسلها زف الحاضرات شيماء إلى الحمام ودخلت معها امرأة تساعدها على تغيير ملابسها وتزينها. وخرجت من الحمام ترتدي الدرع الأخضر فوق فوطة خضراء مطرزة (شلحة من الستان المطرز) وعليها وشاح من ذات اللون. أخذن بالرقص كل أنواع الرقص اليمني الصنعاني والعدني المعروف بالشرح وأخذن يطربن على الأغاني القديمة والحديثة الشمالية والجنوبية. حتى قدم العشاء في حديقة البيت. وانتهى الحفل وعاد المدعوات إلى بيوتهن منتظرات يوم الزفاف بعد يومين.

وجاء الخميس موعد الزفاف وكانت رابعة خيطت فستانا رمادي اللون ووضعت المزينة على وجهها ألوانًا رمادية وفضية جعلها تبدو كحورية تخرج من البحر استلقت على الفراش لتزينها المزينة في وجهها فكلما وضعت قلم كحل على عينيها تبتعد بالقلم فقالت لها: عيناك تدمعان حاولي تمالكي نفسك عزيزتي هل معك حساسية أو هناك ما يزعجك. لم تستطع رابعة حبس دموعها فبكت. وقامت وغسلت وجهها قائلة للمزينة: اعذريني تعرفين أن أمي مريضة وكنت أتمناها أن تحضر اليوم معي.

قالت: نعم أفهمك عزيزتي فأنت زبونة قديمة وأقدر مشاعرك وأعرف والدتك صبر الله قلبك وشفى والدتك.

خرجت من عندها المزينة وهي تشعر بتعب جم، عليها تمالك أعصابها وأن تستعيد قوتها فعليها أن تذهب إلى حفل الزواج والقيام بما يتوجب عليها من التزامات وخاصة أن والدتها ساهمت بنفقات الحفل.

أخرجت عباءتها وحاولت أن تبدو هادئة وكأن الأمر لا يعنيها. ودخلت غرفة والدتها للسلام عليها فقبلتها، وطلبت منها والدتها أن تقضي سهرة ممتعة وأن توصل تحياتها لشيماء.

نزلت من الدرج فصدمت لوجود عقبة جالسا في الصالة فقالت له: يبدو أنك ما زلت تتمتع بوقاحتك المعهودة.

لم يرد عليها ولكنه اقترب منها قائلا: هل ستذهبين إلى الحفل؟

- نعم.

- اسمحي لي أن أوصلك.

- لا شكرا.

- أخاف عليك.

- أنت ولماذا؟

- لا أريد ولكن ملامح وجهك غير مطمئنة.

- هذا ليس من شأنك.

- ما زلت تحبينه؟

- أحب من؟

- مالك.

- ما أغباك!

- نعم أنا غبي فعلا لأنني صبرت عليك كثيرا كان المفروض أن يكون اليوم هو يوم زواجنا.

- تتهكم معي الآن، فهذا ليس وقته.

- حسنا سأدعك الآن.

تركها تخرج وتبعها بسيارته حتى وصلت بأمان وشعر بالاسترخاء أنها دخلت الحفل فاطمأن عليها ورجع إلى البيت وبقى ينظر إلى ساعته باستمرار حتى حانت الساعة الثانية عشرة ليلا. شعر أنه لابد عليه الذهاب ليراها فلابد أن حالتها مضطربة. حرك سيارته نحو المطعم. وشعر بالراحة لوجود سيارتها حيث تركتها، فأخذ ينتظر خروجها من الحفل ولم ينتظر طويلا حتى رآها تخرج وهي شبه منهارة والدموع تتساقط منها كتساقط المطر. عرف إن قادت سيارتها قد تصاب بحادث. تقدم إليها، وما أن رأته حتى استندت عليه وكأنها نسيت حقدها كله في لحظة. حملها إلى سيارته فانفجرت بالبكاء لم يستطع أن يكبح غضبه فصرخ قائلا: لو مت أنا فلن تحزني علي كل هذا الحزن بل لو توفيت والدتك لن تبكي كل هذا البكاء. يبدو أنه شاب محظوظ لكي تعشقه امرأتان!

عادت إلى البيت ولم تدخل إلى والدتها حتى لا تراها وهي في هذه الحالة ستعتذر لها صباحا بأنها خافت أن توقظها، ولكن اطمأنت حينما أخبرتها إيفا بأن والدتها تناولت دواءها ونامت. دخلت غرفتها ونظرت إلى وجهها في المرآة أزاحت مسكات الشعر السوداء من على شعرها فنزل شعرها الغزير على كتفيها

وغطى ظهرها ثم مسحت مساحيق التجميل من وجهها بعمق وظلت مستمرة تمسح وتمسح واستخدمت قطعًا قطنية كثيرة ما أن تمسح بواحدة مرة حتى تلقيها وتأخذ الأخرى وتصب عليها كمية من كريم تنظيف البشرة فتمسح بشرتها كأنها تريد مسح ذكريات هذه الليلة والألم الذي سكن ضلوعها، وكان صوت الأغاني ما زال يرن في رأسها وخاصة أغنية سرى الليل التي رأت مالكا يرقص عليها مع أهله فهي أغنيتهم من تراثهم الجنوبي. غيرت ملابسها وأخذت تشدو بها وهي تدور بغرفتها كطاحونة الهواء:

سرى الـلـيـل ونـائـم عـلى البحر

ماشي فائدة في منام اللّيل حلّ السريّة

سرى اللّيل يا رامـي شباك الهوى

والبحر كله نوى وأنت حيـاتك شجيّة

سرى الليل يا مولى الذهب والرّشوش

لا شدّوا الخيل شد مهرك العولقيّة

فاصطدمت بكرسي مكتبها فتوقفت عن الدوران وجلست إلى مكتبها وأخذت نفسا عميقا ثم سحبت دفترها إليها وفتحته فكتبت.

" آه وكأنه خنجر شق قلبي أكاد أختنق وكأني أصبت بالربو في جو صنعاء الجبلي القليل الهواء فجعلني أتنفس بصعوبة وخاصة أنني لم أجلس طيلة الوقت لقد تعبت من الحركة والرقص فلم أتوقف عن الرقص لأظهر لهم فرحتي بل لم أكن أرقص فقد بدوت كالشاة المذبوحة يقف جلادوها منتظرين خروج أنفاسها

ليسلخوا جلدها فينزعون عنها أحشاءها ويقطعون القلب والكبد. لقد أصبحت ككبد حمزة بين أنياب هند. بين أنيابه وأنيابها".

قامت نحو فراشها وكالمقتولة استلقت عليه ونامت حتى الصباح فاستيقظت بتعب فتحركت ببطء وطرقت باب غرفة والدتها فدخلت وجدت والدتها نائمة فابتسمت وخرجت ونزلت إلى الطابق الأرضي ورأت إيفا وقالت: أما زالت أمي نائمة؟

نعم ولكن هذا وقت دوائها فما رأيك أن تأخذي لها طعام الإفطار وتوقظيها وتجلسين معها تقصين عليها ما حدث ليلة أمس فأكيد ستسر بالحديث. وأنا سألحقك لأدخلها الحمام.

- حسنا.

أخذت الصينية وطلعت إلى غرفة أمها متمنية أن لا توقظ أمها وتقص عليها ما حصل ليلة أمس. خاطبت نفسها وهي ترتقي السلالم: لن أخبرها شيئا، سأقول لها إنها كانت ليلة جميلة فقط وأن علي ألا أتعبك بكثرة الحديث. نعم علي قول ذلك لها.

وضعت الصينية على الأرض، ثم فتحت الباب ورفعت الصينية ودخلت ووضعتها على طاولة جانبية ومشت لتفتح الستائر. تعجبت بأن أمها لم تشعر بها خاصة بعدما أزاحت الستائر ودخول ضوء الشمس. اقتربت نحو أمها وضعت يدها على خدها وأحست بجسد أمها البارد الذي لا يصدر عنه أي تنفس فتنهدت بصعوبة وحاولت كتم صرختها ولكن لم تقدر وصاحت: أمي.

الفصل التاسع

مضت ثلاثة أشهر على وفاة والدتها فانغمست طيلة المدة في دراستها واستمرت بمزاولة عملها في المشفى. فرجعت ذات يوم مرهقة من الجامعة وارتمت على فراشها وأغمضت عينيها تشعر بالوحدة. كانت تعود إلى البيت فتجد والدتها موجودة تنتظرها على الغداء. ثم تسترخي قليلا حتى يحين موعد مسلسلهما اليومي الذي يتابعانه على حسب الظروف، فتجتمعان سويا وأحيانا تختلفان على القناة ونوعية المسلسل فهي أصبحت مغرمة بالمسلسلات التركية وكانت والدتها تنتقدها بل تشعر بالعصبية عندما تسمع الدبلجة وتقول كل الأصوات تتشابه فلم نعد نفرق بين المسلسلات. والله إن الأتراك أصبحوا يضحكون علينا ونحن نصفق لهم. كانت تسمع والدتها وتظل تتابع. وبشكل عام تبقى متابعة والدتها للمسلسلات والتلفاز قليلة لانشغالها في المعهد فأحيانا تسهر مع ابنتها كل أسبوع في مشاهدة أحد الأفلام أو برامج المسابقات الترفيهية وفي نهاية الأسبوع تذهب معها إلى السهر في بيت إحدى الصديقات أو تأتي إلى بيتهما بعض الصديقات أو تخرجان مع بعض في التنزه في صنعاء وأحيانا تنزلان إلى "تعز" في نهاية الأسبوع. فطبيعة الجبال خلابة تظل خضراء تقريبا طيلة السنة، كانت تهيم عندما ترى جمال بلادها الطبيعي والمدرجات الخضراء على الجبال والوديان كلها مكسوة بالأخضر رغم رؤيتها لطبيعة أوروبا إلا أنها تفتخر أنها تنتمي إلى هذه الأرض الساحرة.

تنهدت بحزن لفقدها كل ذلك. لقد أصبحت وحيدة لا يشاركها أحد. فمن أهلها الموجود في صنعاء خالها الأصغر وإحدى خالاتها ولكن أطفالهم صغار السن. وبنات أخوالها اللواتي في سنها إما في تعز أو في عدن والبعض منهن متزوجات في الخارج. لا أحد هنا معها. حتى الصديقات مهما كانت درجة قوة العلاقة التي بينهن إلا أنهن يبقين صديقات فلا علاقة خاصة كعلاقة الأهل ببعضهم البعض، فكل معه أهله وحياته الخاصة. سقطت من عينيها دموع حزن وتذكرت وفاة والدتها والأحداث التي أعقبت رحيلها.

ففي الثلاثة أيام الأولى من العزاء لم يتوقف الزائرون عن القدوم صباحا ومساء وكانت رابعة تجلس تستقبل المعزين وببرود وتعب حتى إنها أحيانا تذهب إلى غرفتها وتترك خالاتها هن اللواتي يقمن بأخذ العزاء. خاصمتها خالتها الكبرى ذات مرة ولكن لم تعط للموضوع أهمية لأنها تشعر ضمنيا أن كل ذلك نفاق اجتماعي.

حضرت شيماء للعزاء منذ ظهر يوم الوفاة فأقبلت عليها وضمت رابعة إليها وبكت على كتفها فربتت على ظهر شيماء وهي تشعر بالنفور منها لإحساسها أن كل هذا الحزن ليس حقيقيا بل عبارة عن كذب ونفاق، فربما تعتقد شيماء بأن رابعة ستوقف نفقاتها الجامعية فابتعدت شيماء قليلا، فمالت إليها رابعة تهمس لها: لا تقلقي كل شيء سيكون كما كان قبل وفاة والدتي.

فعبست شيماء قائلة: ماذا تعنين؟

فنظرت رابعة قائلة ببرود: مصروفك ونفقاتك الجامعية.

كظمت شيماء غيظها قائلة: جئت معزية ولم آت شحاذة.

فضحكت رابعة بهستيريا حتى لفتت انتباه الحضور. فنظرت لها إحدى خالتها بنظرة أسكتتها وسحبتها الأخرى تعاتبها. فهدأت قليلا وعضت على شفتيها وأدركت أنها أساءت التصرف.

انصرف المعزون وظلت خالاتها للمبيت عندها، ولم يمض الكثير من الوقت حتى تراجعن إلى بيوتهن وظلت معها خالتها المقيمة في صنعاء التي طلبت منها أن تأتي لتعيش معها ورفضت رابعة أن تترك بيتها قائلة: لن أترك بيت أبي وأعيش عند الآخرين حتى وإن كانوا أهلي ولن أسمح لعقبة أن تأتيه الفرصة ليستولي على بقية البيت.

- حسنا وماذا ستفعلين معه؟ تعلمين أنه ينوي الزواج منك.

- لا يمكنه ذلك.

- لا أحد يستطيع أن يجملك على الزواج منه طالما لا تريدين ولكن انتبهي على نفسك.

- لا تقلقي.

أغلقت الباب خلفها تودع خالتها ونظرت إلى سيارة عقبة التي تركها هنا واشترى سيارة جديدة أصبح يستخدمها، فتنهدت ودخلت البيت وأغلقت الباب خلفها. كان يتواجد فقط لتقبل العزاء للرجال مع أخوالها في ساحة البيت في الثلاثة الأيام الأولى.

ولكن لم يدخل البيت مطلقا فيخرج من البيت عندما ينصرف المعزون. كانت تراقبه من نافذة غرفتها وتتأكد من حضوره وعند انتهاء اليوم تنظر إلى

النافذة وتجده انصرف يعود إلى الفندق القريب حيث ينزل فيه منذ عودته. حاول الاتصال بها ولكنها لم ترد على أية مكالمة من مكالماته، ورفضت لقاءه أكثر من مرة. فاكتفى بإيفا التي أصبحت وسيطا بينهما فلم تعرف عن أخباره شيئا. غير أنه يأتي فقط ليحضر وجبة الزربيان المكونة من الرز واللحم الذي داوم على الإتيان بها من مطعم الشعبي للمأكولات الشعبية تقدم معها العشار مع البسباس (مخلل الليمون مع الفلفل الأحمر). فيتعشى المعزيون ثم ينصرفون. فاستمر في تقديمها لأسبوع آخر حتى طلبت رابعة من إيفا أن تطلب من عقبةَ أن يتوقف عن جلب الطعام فكل ذلك إسراف لا داعي له. فما أن توقف عن تقديم العشاء للمعزين حتى خف عددهم عن الحضور. فأدركت أن البعض منهم جاء ليأكل ولم يأت ليعزي.

وبعد أسبوع من وفاة والدتها جاءتها "أمة السلام" وأخبرتها بأن والدتها كتبت لها باسمها كل ما تملك بيعا وشراء وقد سوت هذا الأمر مع أخوالك وأرضتهم بمبالغ مالية رغم امتعاضهم إلا أن حبهم لها بسبب كرمها معهم هو الذي جعلهم يرضون بذلك وخاصة أن الوضع سيبقى على ما هو عليه فوالدتك حرصت أن تبقى نفقاتها لعائلتها كما هي بعد وفاتها حتى لا يشاركها أحد من أخوالها في الميراث، وأوصتني أن أدير شئونك المالية. فقالت: طالما أوصت والدتي بذلك فأنا راضية. بالمناسبة ماذا عن شيماء؟

- لم توصني بشيء عنها.

- هل سنستمر بالإنفاق عليها؟

- أظن أن والدتك لن ترتاح في قبرها إلا إذا أكملتي مسيرتها فربما غفت عن ذكر شيماء لخوفها عليك فكان جل تفكيرها كان بشأنك لذلك هي مؤكد تتمنى أن تكملي مسيرتها كما كانت حية.

- حسنا أعلم ذلك وليس عندي استعداد أن أغير شيئا مما كانت والدتي عليه قبل وفاتها.

- جميل فأنت طيبة القلب رغم عصبيتك.

فقالت مستنكرة: أنا عصبية؟

- نعم يا عزيزتي فكوني هادئة فالحياة تحتاج إلى الكثير من الصبر.

- حسنا.

لم تكن ترغب حقيقة في إرضاء والدتها بقدر ما كانت ترغب أن تذل شيماء. أحيانا تشعر بأنها حقودة بتصرفاتها هذه لسبب لا تعرفه. ولكن ما تلبث وتعود إلى عهدها طفلة شابة تملك الثروة وتعيش وحيدة. لم يأت أعمامها في زيارتها إلا بعد أن انقضى شهر على العزاء حضروا إلى صنعاء من الحديدة. وكان ذلك مفاجأة لها رغم أن عليها تحضير نفسها لذلك وتتوقعه. جاءتها إيفا تخبرها بأن عقبة اتصل بها وأنهم بعد ساعة سيكونون في البيت، عليها أن تتجهز لاستقبالهم. ارتدت تنورة سوداء تحتها قميص أبيض مع حزام أسود فبدت جميلة بتلك الأناقة. دخلت إليهم وهم في المجلس الأرضي. كان عقبة يجلس مع أبيه وعمه، دخلت إليهم فجلست مقابل عميها وتربع عقبة جالسا بجانبها فاتخذت مكانًا بعيدًا عنه.

فتكلم والد عقبة قائلا: يا ابنتي الآن وقد توفت والدتك وأصبحت وحيدة إذ لا يجب عليك الانتظار حتى تكملي دراستك لابد أن يتم عقد قرانك على عقبة الآن.

لم تقل شيئا سوى أنها أخذت نفسا عميقا، وقامت وانسحبت من الغرفة. فهاج والده غضبا من سوء تصرفها. فأمسك عقبة أباه قائلا: ليس هذا وقته أريدها أن تتخرج من الجامعة.

فاشتعل غضبا قائلا: بل هذا وقته ربما أنت لا تريد الزواج منها.

- بل أريد ذلك وعندي الرغبة والعزم على الزواج منها. ولكن كل شي يأتي بالتراضي فلا تقلق هي الآن وحيدة وسهل استمالتها وأنا لن أتركها.

***

حبست نفسها في غرفتها ولم تنزل لتوديع أعمامها وجلست على مكتبها وتأملت صورة والدها، فأخذتها وضمتها إلى صدرها بكبت ثم مسحت دموعها وأرجعت الصورة مكانها. وفتحت دفترها وكتبت.

"ليس للإنسان الكمال على الدنيا. فالمال والجمال لي والحب والأمان كتب لغيري ليس معي أحد يحملني على كفوف الراحة أو يد تمسح دمعتي. أصبحت وحيدة بعمر الزهور بين أشواك الصبار يقطعها جفاف الصحراء. فلا مطر ولا هواء بل شمس حارقة لهبت جسدي من الأحزان".

***

عاد عقبة بعد ذلك اليوم للإقامة معها ولكن لم تلتق به إلا لمَّا كانت تعلم بوجوده ولكن كان يتجنب اللقاء بها أو الاحتكاك معها، فتعجبت بل أحيانا تأتي أيام لا تراه. أخذت تلهي نفسها بدراستها. حتى قدمت امتحانات السنة الثالثة ولم يبق إلا سنة ستقضيها كلها تدريبا في المشفى.

فاجأت الجميع بتفوقها ووضع اسمها على لوحة الشرف كما تمنت بجانب اسم شيماء التي قطعت علاقتها بها، كأنها لا تعرفها. فتناستها وتناست مالكا. كانت تراها أحيانا في الكلية فقد انفصلا عن بعضهما حتى في المواد الدراسية فكلتاهما أصبحتا تدرسان مواد تخصصها الدراسي بعيدة عن الأخرى. كانت ترى بطنها يكبر فأدركت أنها حامل. فلم تأت إليها لتبارك لها. حاولت شيماء أن تسلم عليها فردت عليها رابعة ببرود.

فخاطبت شيماء نفسها: لولا فضل والدتك علي لما أتيت للسلام عليك. كانت تريد أن تقول لها ذلك في وجهها ولكن خافت أن تكون ردة فعل رابعة عنيفة فهي تعلم ماذا يمكن أن تأتي، فقد تحرمها من إكمال آخر سنة دراسية لها فبلعت لسانها قهرا.

عادت إلى بيتها وقصت على مالك تصرف رابعة وسألته إن كان يراها في المشفى فأخبرها أنه يلمحها قليلا ولكن ليس هناك أي حديث بينهما بل أظن أنها كلما رأتني تبتعد عني.

فقالت: تعلم يا مالك أنا أعلم أن رابعة ذات قلب طيب ولكن الدلال أفسدها كثيرا فقد سمعت أن والدها كان يدللها بصورة كبيرة حتى إنني سمعت مرة رقية تقول لأمي بأن والد رابعة كان يعاملها كملكة فلا يريد أحد أن يتقدم

عليها أو يزاحمها أو يقطع عليها طريقها أو يأخذ أي شيء منها فكل ما تريده مجاب من غير نقاش إلى درجة ما إن ترى شيئا عند غيرها فينظر أبوها إليها ويسألها إذا كانت تريده فتشير له بنعم ومباشرة يجلبه لها وربما أحسن منه أحيانا، وذات مرة يقال إنها تمنت لعبة ما فاشترى لها والدها ساعة يد ولكنها رفضت وأصرت على اللعبة وذات اللعبة وليس غيرها. فجاءت وفاته صدمة كبيرة على نفسية رابعة. تعلم أشعر بأن رابعة إن كبرت ونضجت ستتغير إلى الأفضل وخاصة بعد وفاة والديها.

- هل ما زال عقبة يعيش معها؟

- على حد علمي نعم.

- وهل سيتزوجان؟

- هذا ما ينوي هو أما هي فلا أعرف.

ومضى الوقت وفي منتصف الإجازة الصيفية وضعت شيماء طفلتها التي أسمتها رقية. كانت قد أنجبتها في المشفى رغم ارتفاع سعر الإقامة إلا أن هناك رعاية طبية خاصة للموظفين تشمل العلاج المجاني ولكن لا يغطي أهل الموظفين وزوجاتهم فقط يتم خصم مبلغ بسيط من رواتبهم.

***

زارت "أمة السلام" رابعة في بيتها التي تستعد للسفر إلى القاهر بضعة أسابيع بعد انتهاء الفصل الصيفي فقالت لها بعدما وضعت فنجان الشاي جانبا.

- رابعة لقد أنجبت شيماء فتاة وأسمتها رقية.

فابتسمت وتساءلت: حقًّا؟

- نعم

- وبالمناسبة كنت في بيتها يوم أمس وسألتها من أين جاءت بمبلغ الولادة في المشفى فأخبرتني أنه تم استقطاع مبلغ من راتب مالك.

- حسنا وبعد.

- أريدك أن تطلبي من الإدارة ألا يخصموا من راتبه شيئا.

فقالت مستنكرة: ألا يخصموا؟

- نعم.

- ولماذا؟

- لنقل إنها صدقة على روح والدتك.

- صدقة مع الذين يستحقون.

- ألا تعتقدين أن شيماء وزوجها يستحقان ذلك.

- لا يستحقان. يكفي أنني منحت له زيادة في راتبه. ألا تكفيهم ٧٠ ألف ريال التي يأخذها شهريا. هذا أراه وقاحة. وأنت هل هذا اقتراح منك أم هما من طلبا منك ذلك؟

- لا بل أنا.

- حسنا يا عزيزتي وفري وقتك معي.

تركتها "أمة السلام" وهي مستاءة منها أكثر فلم تتوقع أن تخرج من رحم امرأة فاضلة كرقية فتاة كرابعة ورددت الآية القرآنية (يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي).

فهمت بالخروج من البيت فاستوقفها عقبة قائلا: "أمة السلام" كيف حالك؟

نظرت إليه "أمة السلام" فهزت رأسها قائلة: بخير.

فابتسم لها: جميل أرجو أن تكوني بخير. ما هي أحوالك؟

- لا شيء.. نشغل وقتنا بالمحاماة.

- موفقة، بالمناسبة ألا تفكرين بالزواج؟

حدقت بنظراتها إليه ثم أشاحت وجهها عنه قائلة: هذا أمر لا يعنيك.

- وكيف لا يعنيني وأنا وأنت كنا أصدقاء وأظن أننا ما زلنا كذلك.

- كل شيء قسمة ونصيب.

تركته وخرجت من البيت وبقي واقفا ثم نظر إلى الدرج ناحية غرفة رابعة فتراجع خلفا إلى غرفته واستلقى على فراشه وتذكر "أمة السلام" التي لم يشأ إثارة الماضي معها طالما هي لا تريد فقد كان يعرفها قبل سفره إلى الولايات المتحدة بل كانت بينهما قصة حب رغم أنها تكبره بعام ولكن حب المراهقة لم يعرف حدًّا عمريا أو مكانيا معهما فكانا كثيرا ما يلتقيان عندما يكون في صنعاء

أو حتى عندما تزور الحديدة عند أقاربها أو تنزل إلى عدن، تعرّف عليها عندما كانت في الحديدة. كانت في السادسة عشرة وهو في الخامسة عشرة. نشأت بينهما صداقة لطيفة ثم مر الوقت عندما أصبح هو في السادسة عشرة. عبر لها عن حبه. ولم يصارحها برغبته بالزواج ولم تسأله لصغر سنهما وسافر هو إلى الولايات المتحدة وبقيا على تواصل عبر الإنترنت كما كانا معتادين في اليمن حتى انقطع عنها تدريجيا ثم صدمت عندما علمت بخبر زواجه. أكملت دراستها في القانون وتفوقت وعملت بجد في مكتب والدها.

ركبت سيارتها عندما تركته وأجهشت بالبكاء فما زالت تحبه ولم تنسه للحظة. وتشعر أنه لا يعرف ما الذي يريده؟ فالغربة والنساء الأمريكيات غررن به والآن الحقد أعمى قلبه لرغبته بالزواج من رابعة.

***

خرج من البيت بعد خروج "أمة السلام" ولم يعد إلا ليلا ودخل إلى المطبخ حيث وجد رابعة تهم بالخروج فاصطدم بها فجفلت وهو كذلك وخاصة عندما رآها جميلة ببشرتها البيضاء ووجهها الشاحب والهالات السوداء التي تحيط بعينيها فأعطتها جمالا جذابا والدرع البوال الأسود الذي يشف حسنها ويعبق جسدها المعطر بالبخور والعود وشعرها الأسود الحريري اللامع كليل ينيره القمر وببشرتها الرقيقة كريش حمامة ناعم وشفتيها التي كالتوت البري، فاشتهى أن تلامسها أصابعه ليلعق عذوبة طعمها بل تمنى أن يضع شفتيه عليها. فاقترب منها راغبا أن يضمها إليه فتمالك نفسه. فأخرجه من تأمله صوتها الغاضب: عقبة ابتعد عني.

تراجع إلى الخلف وسمح لها أن تمر فناداها: رابعة.

فلم تنظر إليه واستبقت الخطى إلى غرفتها. وناداها مرة أخرى.. رابعة، فلم تتوقف واستمرت في الصعود إلى غرفتها. فتبعها وهو يناديها فدخلت غرفتها وأغلقت عليها الباب بالمفتاح وبقي يناديها قائلا: رابعة أرغب بالحديث معك.

لم تعطه أي اهتمام فعرف أنها لن تفتح له الباب فنزل يخاطب نفسه: رباه كم أنا مجنون إن تزوجت رابعة بهذا الحقد الذي يعمر في قلبي. أدرك أنه يحبها بل إنه فعلا يحبها منذ فترة وأن كل ما يفعله كان نظرا لاستفزازها له ونظرا لتصرفاتها الصبيانية. تذكر عندما قلق عليها عندما كانت في مصر ولم تعد مع أمها. سأل عنها صديقتها في القاهرة فأخبرته أنها في شرم الشيخ تنزل في إحدى الفنادق فذهب إلى هناك ونزل في الفندق حتى وجدها وعرف أين تقيم وظل يراقبها حتى رآها مع جون صديقها فلم يتحمل أكثر. لم يكن تصرفه ناتجا عن شرف أو أخلاق بل فقط عن حب وغيرة. ومما زاد من غضبه تصرفاتها مع مالك سابقا فاستلقى على فراشه مسترخيًا لشعوره بأن مالك لم يعد يشغل تفكيرها.

جاء العام الدراسي الأخير الذي يركز على التدريب في المشفى. كانت قد سمحت لإدارة الجامعة أن تجعل بعض طالبات قسم التحاليل والصيدلة التي اختارتهن هي بالتدرب عندهم فاستثنت شيماء منهن. فكانت تجد من وجود زميلاتها معها نوعا من التسلية. انشغلت رابعة في تدريبها في المشفى ولم تلحظ وجود مالك بل إنها تناسته تماما. خلال هذه المدة تقدم لها الكثير من الشباب المعجبين بها ولكن ما أن يسمع الشاب أنها مخطوبة لابن عمها عقبة فيتراجع

فكانت تتعجب كثيرا لِمَ لم يقع أي شاب في حبها ولم يتجرأ على طلب يدها. ما هو السبب فكان الكثير يعجب بها ولكن تلحظ ما إن يعلم أنها ابنة من؟ يتراجع عنها. فشكت ذلك لأمة السلام التي أخبرتها قائلة: أن الكل يعرف بأنك مخطوبة لابن عمك.

أثارها ذلك وانفعلت وقررت مواجهته فانتظرته مليا لتحدثه فلم تره طيلة الأيام الماضية، لم تستطع أن تلتقي به في البيت نظرا لعودته المتأخرة إلى البيت وإن عاد يغلق عليه باب غرفته حتى إنها انتظرته إلى ساعة متأخرة وما إن جاء سألته أن تتحدث معه فدخل إلى غرفته متجاهلا لها وأغلق الباب عليه. فصرخت وأخذت بالطرق على باب غرفته بعنف ولكن لم يفتح لها. وفي اليوم التالي جاءت إليه إلى مكتبه وبنظرة أخرجت بعض الموظفين الذين كانوا برفقته.

جلس يحرك كرسيه ينظر إلى عينيها مستعدا لأي هجوم منها فقالت وهي ما زالت واقفة: هناك إشاعة يتداولها الناس عني وعنك.

فابتسم بسخرية قائلا: أية إشاعة؟!

فمالت برأسها استخفافا من رده قائلة: وكأنك لا تعلم يا سيد العارفين.

فحرك يده متعجبا قائلا: ما الذي أعلمه يا عزيزتي؟

فصاحت بغضب: زواجي منك.

فأجابها بهدوء: هذه ليست بإشاعة بل إنها حقيقة وأنت تعلمين بذلك.

- أعلم ولكن لا أعرف أن الآخرين يعرفون ذلك.

- حسنا قد عرف الناس بأمر خطوبتنا الآن فما رأيك لو نعلن موعد زفافنا؟

- قبح الله وجهك يا عقبة.

و تقدمت إلى مكتبه ومالت إليه وهي واقفة قائلة: لن أتزوجك حتى إن أكرهتني على ذلك. لن أتزوجك حتى إن أطبقت السماء على الأرض.

خرجت من مكتبه وهي تهيج غضبا ولا تعرف ما تراه أمامها فاصطدمت بأحدهم فوجدت مالكا ينظر لها فخفق قلبها له حتى ارتعشت وشعرت بالدوار فابتعد عنها لخوفه من تصرفاتها التمثيلية فوضعت يدها على قلبها قائلة: اللعنة عليك يا عقبة ويا مالك. اللعنة عليكم جميعا أيها الرجال.

الفصل العاشر

قدم الصيف في صنعاء وصيف صنعاء ليس كصيف بقية المدن العربية فهو شتاء قارص في الكثير من المدن نظرا لارتفاعها أمتارًا عديدة عن مستوى البحر. وأمطارها صيفية بصورة يومية تضيف على الجو نوعا من الشاعرية والفرح. وترتوي الجبال الغنية بالخضرة جمالا ما بعده جمال. الطبيعة هنا تتحدث عن نفسها بفخر فأغرت السياح من كافة الجنسيات وتحديدا الأجانب، بالإضافة لما يعرف عن الشعب اليمني بطيبة قلبه ورقته وقد قال رسول الله ﷺ: **(أتاكم أهل اليمن. هم أضعف قلوبا وأرق أفئدة. الفقه يمان والحكمة يمانية)**.

تجمع الطلبة في حفل التخرج في موكب استلام شهاداتهم الجامعية وكانت رابعة تقف بين الصفوف مع تفوق بمرتبة الشرف فقد اجتهدت كثيرا وحافظت على مستواها الدراسي كما أرادت. حضر حفل تخرجها "أمة السلام" وخالتها المقيمة في صنعاء وخالتها الأخرى المقيمة في عدن التي جاءت إلى صنعاء في إجازة الصيف. تلقت العديد من الاتصالات المباركة من أهلها والكثير من الأصدقاء.

لم يحضر عقبة حفل تخرجها رغم أنها كانت تترقب قدومه فعضت على شفتيها استياءً لأنها كانت تريد تجاهل حضوره، ولكن عدم حضوره لم يعطها الفرصة لذلك. عادت إلى البيت متعبة فتفاجأت بوجود باقة ورد حمراء كبيرة بجانب علبة مخملية. انبهرت لجمال الورد ونظراته وأخذت العلبة التي عرفت ضمنيا ما بداخلها فخاطبت نفسها: مؤكدا خاتم الزواج الذي كان قد أهداني إياه سلفا.

لم تكلف نفسها عناء فتحها فوضعتها جانبا وأخذت باقة الورد وطلعت إلى غرفتها. فجاءتها إيفا بعد دقائق تحمل العلبة تشير إليها بيدها قائلة:لقد نسيتيها على الطاولة.

فزمت شفتيها وودت لو تعطيها لها ثم تراجعت قائلة: حسنا ضعيها هنا. جلست إلى مكتبها تحمل الصور من هاتفها النقال إلى جهازها الحاسوب إلى موقع التواصل الاجتماعي الفيس بوك فجاءتها سلسلة من الإهداءات والمباركات من حول العالم. والكثير منهم دعوها لزيارة موطنهم. فكرت أين تقضي الصيف. أرادت أن تستمتع كما تريد. فقررت زيارة بريطانيا حيث عاشت وكبرت ثم تعود إلى القاهرة المدينة التي تحبها كثيرا.أجرت في ساعتها كافة إجراءات السفر يلزمها فقط التأشيرة وستقوم بمعاملتها السبت فغدا الجمعة. قامت ورتبت مكتبها فوقعت العلبة المخملية على الأرض، وفتح غطاؤها وسقطت منها قلادة فضية عبارة عن دائرة مطعمة بالألماس في أطرافها متدلية من خيط أسود من خيوط الحرير مربوط على شكل ضفيرة. أعجبتها كثيرا ووضعتها على رقبتها. كانت تود أن تضعها دائما ولكن لا تريد أن يراها عقبة فيظن أنها غيرت رأيها بشأنه.

أخرجتها من أفكارها طرق إيفا على الباب التي أخبرتها بوجود أعمامها. فسألتها: هل عقبة معهم.

- نعم معهم.

- حسنا سأغير ملابسي وسأنزل.

لماذا سألت عن عقبة؟ هل لأنها تشعر بالخوف من أعمامها وتشعر أنها رغم كرهها لعقبة. فهو الأداة التي تريد أن تنفذ حكم الإعدام عليها، إلا إنها

تشعر بذات الوقت أنه وسيلة حماية لها من أعمامها وسند لها. فهو على الرغم من غباء تصرفاتها وطيشها، إلا أنه كان حليما معها. نعم عبر عن غضبه كثيرا ولكن في داخله لطف وعدم قسوة. وتركها تفعل ما يحلو لها رغم علمه ضمنيا باندفاعها وتهورها. فلماذا؟

نزلت إليهم وسلمت عليهم وجلسوا معا. وبعد ذلك تكلم أبو عقبة قائلا لها: يا ابنتي مبارك عليك تخرجك رغم أننا ما زلنا مستاءين منك بسبب تصرفك الأخير معنا، ولكن أنت ابنة أخينا ونغفر لك ونحن جئنا لك بالتراضي على أن نقوم بتزويجك من عقبة فأنت منا ونحن منك واتركي عنك جنوح انفعالك الذي ستخسرين به احترام أهلك وتعاطفهم.

فنظرت إليه بكبرياء قائلة: وإن رفضت مجددا.

فحبس غضبه قائلا: لا يحق لك الرفض.

- ولِمَ؟

- رابعة هذا أمر.

- ليس مفروضا عليّ أن أقبل بأن تزوجوني لمجرد إنكم أردتم ذلك من إنسان لا أحبه وهو كذلك لا يحبني.

- والله حقا أنك فتاة وقحة.

وبهدوء قالت: قل ما شئت فلن أتزوج من عقبة مهما فعلتم.

تململ أعمامها بغضب فقاما بحنق، وخرجا من البيت فلحقهما عقبة فوقف والده أمامه قائلا: عقبة إن لم تتزوجها لن أسامحك عمري كله.

فقال له وهو يقبل رأسه: يا أبي اهدأ لا نستطيع أن نفرض عليها شيئا لا تريده. قد ترفض الآن ولكن صدقا وأكرر وعدي فلن يتزوجها أحد غيري.

- متى سيكون ذلك؟ لقد تأخرت كثيرا وكل مرة تماطل حتى تتخرج وها قد تخرجت يبدو أنك لا تريد الزواج منها.

- صدقا يا أبي سأتزوجها ولن أتزوج غيرها وليس لأجل المال بل لأني أحبها.

- تحبها؟

- نعم أحبها وأريدها أن تكون زوجة لي.

- حسنا ربما الحب يأتي بما لا يستطع المال فعله معك.

***

سافرت إلى بريطانيا وعاد عقبة إلى الحديدة مع أبيه. فقد قضت شهرا كاملا فيها ثم ذهبت إلى مصر وقضت بضعة أسابيع أخرى. ثم عادت إلى صنعاء وبدأت بمزاولة عملها في المشفى. كانت لا تترك قسم المختبر كثيرا فهي تقضي أغلب الأوقات فيه وتتعلم وتتمرس حتى أتقنت الكثير. كانت ذكية رغم طيشها وجموحها وانفعالها الناتج عن تربيتها المدللة.

أزاحت من على وجهها كمامة الوجه بعدما انتهت من عملية تحليل دقيقة تشعر بالتعب فخلعت قفازيها ورمتهما في أقرب سلة وذهبت إلى الحمام فغسلت وجهها بصابون ناعم موجود دائما في حقيبتها، ثم وضعت كريماً مرطبًا على

بشرتها وأخرجت زجاجة عطر رشت منها كمية ورتبت وشاحها الملون القطني. خرجت من الحمام إلى المقهى ودخلت فرأت مالكًا يجلس مع رجل آخر. خفق قلبها فابتعدت لتتجنب مواجهته وكأنه لا يعنيها. بدا أكثر وسامة وجاذبية من ذي قبل. فخاطبت نفسها وهي تقف منتظرة أن يكمل العامل صنع قهوتها: يا إلهي يا رابعة ما زلت تحبين هذا الرجل. لماذا لم يخفق قلبك لرجل غيره. لماذا هو؟

أخذت قهوتها وابتعدت وعادت إلى غرفتها فقد خصصت لنفسها غرفة لترتاح فيها بدل العودة إلى البيت للراحة. سألت نفسها: كيف هي شيماء الآن وماذا فعل بها الزواج لم تلتق بها بتاتا في الجامعة وخاصة أنها الآن قد تخرجت وبقيت شيماء في سنتها الأخير من كلية الصيدلة. كانت "أمة السلام" هي الوسيط بينهما في الإشراف على نفقات شيماء الجامعية ولم تتدخل رابعة فجعلت "أمة السلام" تنفذ رغبة والدتها وكأنها ما زالت حية.

لم يحاول عقبة بعد ذلك اليوم أن يحدثها بشأن الزواج مطلقا حتى معاملته لها أصبحت رسمية وببرود عاطفي. شعرت بالاستياء فتساءلت: ألم يعد مهتما بي أم أنه صُرف عن فكرة الزواج مني؟.

فجاءته ذات يوم وهو في المجلس الأرضي يخزن ويدخن نارجيلته فجلست أمامه ولم ينظر إليها فبادرته بالقول: والآن ما الحل معك؟

لم يرد عليها وبقي يدخن ويتابع التلفاز. فقالت بانفعال: عقبة ألا تنظر لي ولو قليلا.

فأجاب ببرود: نعم؟



- إلى متى ستظل تقيم معي؟

لم يجبها فقامت وأغلقت التلفاز وجلست وقالت: والآن أجبني.

- عن ماذا؟

- إلى متى ستظل تقيم معي؟

- إلى أن يشاء الله ويأخذ ربي أمانته.

- كيف يعني؟

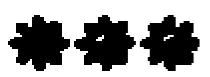
- رابعة أ هذا سؤال تسألينني إياه وأنت تعرفين سلفا إجابته. يا عزيزتي المسألة كلها مسألة وقت وأنا رجل صبور وإن كنت تعتقدين أنني منعت أبي وعمي من فرض الزواج عليك بأنني صرفت نظرا عنه، فهذا ليس صحيحا. سيأتي الوقت المناسب لكي أتزوجك. فكل ما أريده أن يأتي الوقت وتكوني فيه أنت راضية وسعيدة حتى يكون زواجنا سعيدا فأنا رجل ديمقراطي لا أحب أن أفرض على أي إنسان شيئا لا يريده.

- ديمقراطي؟!

- مؤكدا سمعتي بها مسبقا وأكيد تفهمين معناها.

كعادته يلجمها بكلامه ولم تستطع قول شيء فتجنبت الاحتكاك به. وتركته على اعتقاده وعازمة أن تقاوم رغبته. فلن يمكنه أن يفرض عليها الزواج منه مهما كانت الأسباب ومهما فعل. فصرخت بصمت: يا إلهي والحل. نظرت إلى صورة والديها وبكت.

***



مضت الأيام برتابة فرجعت يوما من المشفى متعبة فجاءتها إيفا تخبرها بأن أم خالد صديقة والدتها اتصلت بها. تعجبت ما الذي تريده منها امرأة بعمر أمها. فقالت لإيفا: إذا اتصلت مرة أخرى أعطيها رقم نقالي.

فاتصلت بها في اليوم التالي في غرفتها في المشفى فأخبرتها أم خالد عن رغبتها بأن تخطبها لابنها وطلبت منها أن تفكر وتقرر، فخالد معجب بها منذ فترة وهو يعرف بأن عقبة يريد الزواج منها ويعلم أنك لا تريدينه، ولذلك سألني أن أتقدم لخطبتك إذا لم يكن عندك أي مانع. شعرت بالسرور بأن هناك من قرر أخيرا كسر السور. سور عقبة ورغب بتحدي عقبة. فأخبرتها بأن عليها استشارة أخوالها. فأعمامها لن يوافقوا. وأن خالدًا شاب حسن الخلق وهي تعرفه مسبقا والتقت به في أكثر من مناسبة مع والدتها ووالدته في مناسبات عدة فهو يعمل في السلك الدبلوماسي كأمه فهي صديقة أمها في ذات الوظيفة. لذلك هي موافقة بعد موافقة أخوالها.

استلقت رابعة على فراشها تتذكر خالدا... شابا مهذبا طموحا لاحظت في أكثر مناسبة أنه ينظر إليها بإعجاب رغم ذلك لم يحاول أن يعبر له عن مشاعره ربما لأنها كانت صغيرة وأيضا كانت لا تزال تدرس بالإضافة لانشغاله الدائم في عمله، فلم يبدر منه أي تصرف انفعالي قد يؤثر على مركزه المهني. فالذي يعمل في السلك الدبلوماسي حركاته محسوبة وعلاقاته الاجتماعية وأخلاقياته تؤثر عليه كثيرا لذلك تجنب أن يتداخل معها حتى يأتي الوقت المناسب وخاصة بعدما تكرر رفضها لابن عمها، فعزم على خطبتها. وكان ذلك ما صارحها به وهما يجلسان في مقهى الركن الشرقي بعدما اتصل بها، وطلب منها أن يلتقيا، فوافقت من غير تردد وخرجت للقائه. كانت تعرفه جيدا لم يكن غريبًا عنها

مطلقا، شاب مهذب هادئ الطباع حياته الأسرية والمهنة بالدرجة الأولى يريد زوجة تتفهم تنقلاته وعمله كدبلوماسي؛ لذلك رابعة مناسبة له لأنها عاشت في هذه الأجواء ومسئولو الخارجية سيباركون هذا الزواج بحكم مكانة والد رابعة ووالدتها في السلك الدبلوماسي. لم يخفق قلبها له عندما رأته بعد عرضه للزواج فجلست بهدوء وتقارن بينه وبين مالك وعقبة. كان أقل جمالا منهما ولكن كان لطيفا وعيناه خضراوتان وأشقر البشرة كعادة اليمنيين الشماليين أهل الجبال يتميزون بجمال جذاب وكذلك جدته من أصول تركية فالكثير من اليمنيين الشماليين تربطهم أواصر نسب أو جذور تركية نظرا للتواجد العثماني المكثف في اليمن إبان حكم الدولة العثمانية. لم يكن ذات بنية قوية كعقبة أو وسيما كمالك ولكنه مريح. أحبت فيه بساطته فهو ليس وقحا كعقبة أو خجولا كمالك. وجدته طبيعيا خاليا من التصنع والزيف واضحا متمكنا من حضوره وثقافته. تحدثا معا طويلا ثم افترقا. اتصلت والدته بها لتسألها عن رأيها النهائي فأعطتها موافقتها النهائية. فعزمت أم خالد على خطبتها من أخوالها الذين وافقوا. فتم الاتفاق أن يأتي العريس وأهله وأخوال رابعة إلى البيت لتقام الخطبة والاتفاق على مراسيم الزواج.

***

زارتها "أمة السلام" في البيت حينما علمت بنيتها فأخبرتها: أن ذلك قد سيوقعك في مشاكل كبيرة مع أعمامك لأنك لم تعلميهم وتأخذي إذنهم ورضاهم فقد يتدخلون ويمنعون أمر زواجك بحكم أنهم أولياء أمرك فماذا ستفعلين في هذه الحالة؟

- سأجعلك ترفعين قضية تغيير وصاية إلى أحد من أخوالي بحجة أن أعمامي رفضوا تزويجي.

- عزيزتي أشعر بأن الموضوع لن يمر على خير وهذه العائلة بإصرارها أن يتزوجك ابنها من غير موافقة أعمامك فأراه مجازفة كبيرة منهم ربما لطمع في مالك.

تنهدت رابعة بغضب وقالت: إذا بقيت أفكر بالآخرين أنهم يفكرون ببالي فلن أتزوج ولن أنشئ أي علاقة. وخالد من عائلة غنية ومقتدرة فلا أظن أنهم يفكرون بهذه الطريقة وأنا قد أعجبت حقا بالشاب.

- والحب؟

- سأحبه لاحقا بعد الزواج طالما أنه شاب جيد.

- كل الذي أتمناه أن يحفظك الله.

لم تخبر رابعة عقبة بشيء وطلبت من أهلها كتمان الخبر عنه حتى تحين الخطوبة رغم أنها تتمنى ألا يعلم شيئا ولكن أرادت تحدي عقبة وأعمامها رغم أن خالتها نصحتها ألا تعلن شيئا حتى يتم عقد القران خوفا أن يأتي عقبة ويمنع هذا الزواج، ولكن بإصرار وعزيمة وتحدي، قررت إعلان الخطوبة.

ومضت الأيام سريعة وكان عقبة يلحظ حماسة غير معهودة في رابعة وسرور لم يسبق له أن رآها فيه ولكن صمت وظل يراقبها وعلم على ما لاحظه من تجهيزات بأن هناك حفلة ستقام في البيت ولكن ظنها حفلة نسائية ورأى خالاتها قدمن من مناطق مختلفة وأخوالها على غير العادة. توجس خيفة وشعر بأن هناك

أمرًا يحدث وهو غافل عنه، ربما مؤامرة تدبرها رابعة لتعلمه أنها داهية لا يستهان بها. انتظر في البيت ومكث في غرفته يراقب ورأى وكأن هناك حفل خطوبة ما. فشك أن تكون رابعة وشك أن تكون إحدى بنات خالاتها هي العروس ولكنه انتظر. حتى قدم أهل العريس. وبقي ينتظر وشعر وكأنه كما يقول المثل كالأطرش في الزفة وهو يتقدم إليهم في المجلس الأرضي الذي خصص للرجال. سلم على الجميع. وخرج وذهب إلى المطبخ. كان بعض خالاتها في المطبخ فتراجع عن الدخول وأخذ ينادي بصوت مسموع: إيفا. فجاءت إليه. فأشار إليها أن تتبعه فلحقت به إلى غرفته. فسألها قائلا:

- إيفا أخبريني ماذا يحدث؟

ارتبكت وتلعثمت ثم قالت: حسنا أنت لابد أن تعرف فلن يمر دقائق وستعرف.

وبهدوء وبنفس مقبوضة: ماذا أعرف يا إيفا؟

- اليوم خطوبة رابعة.

أحس وكان أحدا يطعنه في قلبه، فلف رأسه الدوار فصاح بغضب: اذهبي من هنا.

خرجت هاربة وتراجع قليلا وفتح أحد الأدراج وأخرج مسدسه، ووضعه في جيب سترته وانتظر حتى سمع الزغاريد وخرجت النسوة إلى الحديقة حيث أقيمت مأدبة عشاء كبيرة لهذه المناسبة.

خرج عقبة من غرفته مسرع الخطى إلى الحديقة فصاحت النسوة فأخذن بلبس عباءتهن ونظرت إليه رابعة وخطيبها بجانبها. كانت ترتدي فستانًا أبيض

مرسوما بالورد الزهري. يظهر ذراعها بشكل جميل. تقدم إليها والشرر في عينيه.

فتقدمت "أمة السلام" إليه قائلة: عقبة تعال معي أرجوك، عيب ما تفعله.

فنظر إليها باشمئزاز: عيب الذي أفعله والذي فعلته ابنة عمي ماذا تسميه؟ وتقدم عقبة إلى رابعة فصفعها على وجهها صفعة قوية فتراجعت إلى كرسيها. صاح الحاضرون وجاء أخوالها وارتعد خالد الذي نظر له عقبة فبصق على وجهه قائلا: قبح الله رجلاً يتزوج من امرأة من غير رضى أهلها.

ثم دنا إلى رابعة وهي تئن ألما وقبض على ساعدها بيده اليمنى يسحبها إلى الداخل فاقترب أخوالها للدفاع عنها وتخليصها من يده، فأخرج مسدسه من سترته بيده اليسرى وصوبه نحو الجميع. مهددا قائلا: والله إنني لن أتوانى على إطلاق النار إن اقترب أحد مني. والآن انصرفوا وهذا أمر. تعلمون أن هذا البيت بيتي وأنتم هنا في ملكي ورابعة ملكي. أ تعرفون ذلك؟ أو أقتل واحدا منكم حتى أثبت هذا الأمر في أدمغتكم.

الفصل الحادي عشر

لم يستطع أحد أن يفعل لرابعة شيئا طالما عقبة ما زال مسيطرا عليها وبهذه القوة. سحبها وهي تقاومه وهو لا يزال يشدها من ذراعها حاولت التملص منه واستطاعت وهربت باتجاه إحدى خالاتها تستنجد بها. انسحب خالد وأسرته آسفين وقبل أن يخرج نظر إلى عقبة قائلا: إن كنت تركتك تفعل ما يحلو لك فهذا ليس لأني جبان ولكن لأني مخطئ أنني اعتقدت أنني سأتزوج من رابعة حتى إن كنت أنت موجودا فأعان الله رابعة أتمنى أن تتخلص منك قريبا.

فأخذت ترجف قائلة: خذوني معكم لا تتركوني معه أرجوكم.

فجاءتها "أمة السلام" وضمتها إليها لتهدأ. وقف أمام الجميع فاقترب أحد أخوالها قائلا له: سودت وجوهنا بتصرفك. كنت انتظرت حتى يخرج الجميع، ثم تعال إلينا وأخبرنا كأي شاب ابن عائلة مهذب أنك ترغب بالزواج منها. أما بهذه الطريقة فأنت رجل منحط. ولِمَ لم تخطبها مسبقا منا إن كنت صادق النية. إنني حقا آسف عليك. وأشار إلى أهلَه أن يخرجوا من البيت.

لم يجبه عقبه وبقى واقفا متهجما. أخذ أخوالها بالخروج من البيت وجاءت إليها خالتها الكبرى بهدوء تأمرها أن تأخذ ثيابها لتذهب معها. فما إن سمع ذلك منها. حتى أطلق من مسدسه رصاصة أصابت الثريا الكريستالية التي تتوسط البهو فصاح الجميع وتناثر الزجاج على الأرض وابتعد الجميع متفادين الإصابة بها، وبقى مكانه رغم إصابته ببعض القطع المتناثرة فنزفت يده.قائلا: لن تخرج رابعة من البيت حتى لو هي جثة.

فصاحت "أمة السلام" به قائلة: صدقا إنك لمجنون.

سحبت رابعة إلى غرفتها وبقيت معها وخرج الآخرون وأغلق الباب خلفهم وتركوه وحيدا تنظر إليه إيفا برعب، فجلس متهالكا واسترخى ومال برأسه إلى الوراء يسنده على المقعد. ثم أخذ نفسا عميقا وانحنى إلى الأمام فرأى فعلته فنظر إلى إيفا قائلا بهدوء وهو يقوم إلى غرفته: نظفي المكان.

أغلق عليه باب غرفته. فنزلت "أمة السلام" للتحدث معه فلم تجده فأخبرتها إيفا أنه بغرفته. فتركته وعادت إلى رابعة التي حبست نفسها في غرفتها أياما. حاولت إيفا "وأمة السلام" التي باتت معها أياما لتحميها وترعاها أن يخرجاها من حزنها فلم تستطيعا، فقد ظلت تبكي طويلا فأتت "أمة السلام" بطبيب لها إلى البيت لسوء حالتها. فعالجها بإبرة مسكنة. وكان يعالجها يوميا إلى أن باتت أفضل ولكن أبت أن تأكل جيدا.

ودعت الطبيب الذي أخبرها أنه لم يعد مهما الآن أن تأخذ أي مسكنات خوفا أن تدمن عليها فقط عليها أن تأكل جيدا وتتناول المقويات. خرج فشعرت "أمة السلام" بهم كبير وبحزن عميق على رابعة وكل ذلك بسبب ابن عمها فذهبت إليه بعدما عاد من غيبة عن البيت طالت أسبوعًا فرأته يجلس في المجلس الأرضي فقالت له: عقبة أريد أن أكلمك بشأن رابعة.

قال مشيرا إليها: لا تناقشيني. رابعة لي فقط كل الذي أتمناه أن أتزوجها وهي راضية. فإما أن تتزوج مني أو لا أجعلها تتزوج مطلقا.

- كم أنت أناني يا عقبة.

- أنا؟

- نعم أناني جعلتني أتعلق بك وسافرت ثم تتزوج من أمريكية وطلقتها والآن تريد أن تغتال هذه الحمامة.

فضحك بسخرية قائلا: من الحمامة؟ رابعة؟! هذه غراب أسود. سود الله وجهها.

- عيب تقول عليها ذلك.

- وهذا الذي فعلته وما فعلته سابقا فأرجوك أن تصمتي فأنت لا تعرفين شيئا عنها وعن جموحها العاطفي، وثانيا لماذا تتهمينني بأني لعبت بعواطفك فأنا لم أعدك بشيء.

- نعم لم تعدني لأني كنت أنا الغبية أنني توهمت يوما. لم تستطع إكمال حديثها فتنهدت وحبست انفعالها فخاطبت نفسها "بأن ذلك ليس وقته الآن " وقبل ذهابها غاضبة قالت: عهدتك طيبا ولكنك أصبحت وحشا.

تركته ومرت على إيفا تسألها أن توافيها بأي أخبار عن رابعة وأن تتصل بها إذا احتاجت شيئا.

***

استعادت رابعة قواها مع مرور الوقت فقررت العودة لمزاولة عملها في المشفى. وأن ترى أعمالها وتشرف عليها فتأكدت أن لا أحد سينفعها أو يحميها منه. فأخوالها تراجعوا عنها ولم يسألوا عنها خوفا على أنفسهم فعرفت أن لا يوجد إنسان مخلص أو محب في الدنيا بعد والديها. كثيرا ما ينساب الدمع منها تلقائيا عندما تشعر بالقهر النفسي وكانت "أمة السلام" خير معين لها إلى أن

تجاوزت أزمته. تجنبت عقبة فلا ترغب بالتصادم معه مرة أخرى. فبعد ذلك الموقف لن يأتي لها أي خطّاب، ولن يمكن لقلبها أن يخفق حبا لأي إنسان لأن عقبة سيكون له بالمرصاد. كانت تشتمه وتدعو عليه سرا ولا تكلمه مطلقا.

أصبحت شاحبة لا تأكل إلا قليلا وتعود إلى البيت في ساعة متأخرة حتى إنها ما أن تضع رأسها على الفراش تنام مباشرة. فأهملت نفسها وجمالها وعلاقاتها وأصدقاءها وحتى كتاباتها اليومية على ورقها.

وجاء الربيع فأرادت السفر وحجزت لنفسها رحلة إلى بريطانيا ثم عدلت عنها فلم تجد من تعرفهم متفرغًا، إما مسافر وإما مشغول حتى صديقتها في القاهرة ستأتي إلى اليمن هذا الصيف. وظلت تشغل وقتها بالعمل، وفي يوم وكعادتها تدخل إلى مكتبها لترتاح من جهد العمل فجلست منهوكة القوى، فسمعت طرقا على الباب فدخلت إليها امرأة دققت النظر في ملامحها فعرفت أنها شيماء وكانت تحمل في يدها ملفا. فابتسمت مجاملة لها. فبعد السؤال عن الأخبار والأحوال. قطعت رابعة الحديث قائلة: أخبرتني "أمة السلام" أنك ترغبين بالتوظيف؟

- نعم لم أشأ إزعاجك فأخبرت "أمة السلام" أن تبحث لي عن وظيفة.

- حسنا أعطني أوراقك.

أخذت ملفها ودون فتحه رفعت سماعة الهاتف واتصلت بمدير شئون الموظفين الذي حضر بعد دقائق، فقالت وهي تمد له بملف شيماء: هذه صيدلانية قم بتوظيفها وبالراتب المناسب.

وأشارت لشيماء أن تتبعه. رغم أن شيماء لم تكن تريد التنازل لتعمل عند رابعة ولكن الحاجة هي التي اضطرتها لذلك وخاصة أن الرواتب مرتفعة نسبيا عن بقية الأماكن، ورابعة مهما كانت سيئة الخلق إلا أنها إنسانة كريمة. وقد ربتها والدتها على الكرم. كانت تدرك أن رابعة تغار منها بشأن مالك بل إنها أحبته من ملاحظتها لنظراتها إليه، ولكن لم تثر مشكلة مع زوجها وتختلق أمورا ليس في محلها فهما زوجان الآن، على الأقل لم تلحظ هي شيئا أثار غيرتها من رابعة أو من مالك زوجها، ولكن الخوف من رابعة فربما رابعة تفتعل شيئا لجموح عاطفتها وهيجان مشاعرها، وردّات فعلها العنيفة أحيانا كثيرة من دون حساب، فلا أحد حتى عقبة لم يستطيع أن يثنيها عن تصرفاتها إلا بعدما أخرج مسدسه ليردعها. توظفت وكانت تأتي مع مالك إلى العمل صباحا وتستمر في العمل إلى الرابعة أما هو فيعود إلى بيته ظهرا فيتناول وجبة خفيفة أو ما بقى من طعام العشاء الليلة الماضية ويعود عصرا فتلتقي به أثناء عودته إلى المشفى قبل رجوعها إلى البيت فترتاح وتجهز له العشاء، كانا يتركان ابنتهما رقية عند والدتها وأحيانا تأتي أحد أخواتها عندها وأحيانا كثيرة تأتي بها إلى المشفى فترعاها إحدى الممرضات.

***

لم تحاول رابعة التحرش بها وظلت حياتها رتيبة، وجاءت الإجازة الصيفية وسافرت مع "أمة السلام" إلى الأردن التي قررت أن تكمل دراستها العليا فيها، فسألت رابعة أن ترافقها فترة من الزمن. لم تتواصل مع عقبة التي قاطعته قطيعة دائمة. حمدت الله أنها أصبحت مسئولة عن أملاكها قبل وفاة والدتها التي كانت هي وصية عليها كما أوصى والدها في وصيته. رغم أنها لا زالت على عنفوانها وانفعالها، إلا أنها أصبحت أكثر حكمة في شئونها المالية، وخاصة أن "أمة السلام"

تشرف على ثروتها وتحاول نصحها لتستثمر أموالها بصورة صحيحة. بعيدا عن أي تلاعب في السوق أو الاحتيال. رغم أنها تعلم أن عقبة سيفيدها كثيرا، ولكن حتى صوته لا تريد سماعه فكيف بالتعامل معه. رجعت بعد شهر رمضان وظلت تعيش ما بين الأردن واليمن وكانت تتمنى زيارة مصر إلا أن الوضع الأمني غير مستقر.

اتصلت بها "أمة السلام" بعدما عادت إلى اليمن من زيارتها الأخيرة قائلة لها: عزيزتي رابعة أريدك أن تعودي إلى زيارتي نهاية الشهر.

- أعود إلى زيارتك؟ ماذا بك هل افتقدتني إلى هذه الدرجة؟!!

- طبعا أفتقدك يا عزيزتي فأنت ابنة الغالية ولكن أريدك أن تكوني موجودة لسبب مهم.

- ما هو؟

- لقد خطبت.

- خطبت؟

- نعم.

- ومن سعيد الحظ؟

- محام يمني مقيم في الأردن ووالدته أصلا أردنية وأمها يمنية. وضحكت قائلة: مزيج بين الجنسيتين. كنت أعرفه منذ فترة وبيننا عمل ولم يسبق أن عبر عن مشاعره رغم حبه لي منذ مدة طويلة، ولكن نظرا لظروف خاصة وخوفا من رفضي لم يصارحني إلا الآن.

- آه يا عزيزتي كم هذا رائع. أتمنى لك كل السعادة. حسنا سآتي إليك الشهر القادم وهل ستكون خطوبة أو ماذا؟

- بل عقد قران ودخلة فيكفي ما ضاع من الوقت.

عادت الشهر التالي إلى الأردن وحضرت حفل زفاف "أمة السلام". لقد خطبها الشاب من أبيها حينها كان والدها موجودا في عمان وأصر أن ينزل هو وأهله إلى صنعاء ولكن والدها رجل بسيط، قال له: الأردن وطننا ونحن في بيتنا الثاني فكله واحد وطالما أنا موجود فلتتزوجا ولِمَ التأخير.

كان حفلا رائعا بكل المقاييس. لأول مرة تشعر رابعة بالسعادة والفرح. لا تدري لماذا لم تشعر به من قبل. هل بسبب الحب الذي أحاطته بها "أمة السلام"، هل لأنها شعرت بأن "أمة السلام" تحبها لذاتها ولا تحبها لمالها كما كان يتراءى لها عند البعض أو أن عقبة وأعمامها جعلوها تدرك بأن الحب لا سبب له إلا المال فكبرت على ذلك وأصبحت تنظر إلى الناس باستعلاء.

عادت إلى صنعاء ومضت بها الأشهر. وانشغلت بعملها وعادت إلى علاقاتها بأسرتها وبأصدقائها. وانغمست في عملها حتى تنسى نفسها لأوقات. وفي ذات يوم أثناء سيرها في إحدى ممرات المشفى جاءها شعور بالحزن والضيق، فلمحت شيماء وهي حامل ومالك يقف معها لم ينتبها إلى وجودها. كان مالك يضم شيماء إليه برقة ويساعدها بحب على أن تصبر. أثارها هذا المشهد العاطفي رغم أنها متعودة على رؤية تلك المشاهد إما في الأفلام وإما في الخارج ولكن هنا وفي اليمن ومع من؟ مع مالك وشيماء؟ كان فوق تحملها فنظرت إليهما بتركيز

تراقب كل حركاتها فتلاقت عينها بعين مالك الذي أشاح ببصره بعيدا عنها وابتعد مع زوجته.

لم ترهما بعد ذلك وظل المشهد يتراءى في خاطرها باستمرار فكتبت على أوراقها." آه كم شدني هذا الحنان النابع منه. إنه يعاملها بلطف وحب. تمنيت في وقتها أن أكون مكانها بل مستعدة للتخلي عن كل شيء لأجل لحظة حب وحنان ليس من أي رجل بل من مالك نفسه، فكم يعجبني. فقد استحوذ على مشاعري. نعم ما زلت أحبه كنت أظن أنني نسيته. لا لم أنسه ما زالت نفسي تتوق إليه وترغب به. كيف لي أن أتخلص من هذا الشعور وهل سيحبني مالك يوما فلربما جعلته يحبني. لا أريده أن يطلق شيماء فقط أريد الحب.

لم تفعل شيئا وأصبحت أكثر لطفا مع الاثنين وتقربت منهما حتى حانت ساعة ولادة شيماء التي وضعت أيضا فتاة أسمتها على اسم والدتها صفية. زارتها رابعة وأهدتها باقة ورد وعلبة شكلاه فاخرة وقلادة ذهبية للطفلة.

ظلت شيماء بضعة أيام في المشفى ثم أخذت إجازة لمدة شهرين ما بعد الولادة حتى انقضت وعادت مرة أخرى لمزاولة عملها ومضت الأشهر رغم التعب الذي ظهر عليها والنحافة الملحوظة إلا أنها لم تشتكِ لأنها تعرف أن الظروف صعبة والماديات صارت الحاجة إليها أكثر إلحاحًا مع وجود طفلتين في البيت ومصاريفهم الكثيرة. جلست في يوم تعمل بجهد رغم تعبها. ولكن لم تستطع التحمل أكثر فشعرت بالدوار وهي تقف مع رابعة في بهو المشفى فأسندتها رابعة ونادت على بعض الممرضين لحملها. أصرت أنها بخير. ولم تستجب لها رابعة فطلبت من الأطباء إجراء فحوصات لها وتم ذلك. أخذت

رابعة عينة الدم ففحصتها بنفسها وظهرت النتيجة فارتجفت، وظنت أنها مخطئة. وطلبت أخذ عينة أخرى وطلبت من مدير القسم أن يقوم بنفسه ليتأكد. وثبتت صحة النتيجة التي لا تبشر بالخير.

أخفوا عن شيماء حقيقة مرضها حتى يتأكدوا فأرسلوا عينة إلى ألمانيا ليتأكدوا من صحة تحاليلهم وجاءت النتيجة بعد أربعة أيام بأن شيماء مصابة بسرطان في الدم ومنذ ولادة طفلتها الأولى ولم تعرف بذلك نظرا لإهمالها بصحتها.

علمت شيماء من تعبيرات "أمة السلام" التي جاءت إليها من عمان لتعايدها في المشفى قائلة: من تعبير وجهك يا عزيزتي علمت ما بي. أنا مصابة بالسرطان ولكن يا ليتهم يخبروني أي نوع.

- وكيف علمت أنني أخفي عليك أمرًا.

- لأنك الوحيدة التي تعبر بصدق ويظهر ذلك من تعبيرات وجهك ونظرات عينيك.

فأخبرتها "أمة السلام" بالحقيقة بلطف. وظلت شيماء صامتة تستمع إليها فلم تبك ولم تعترض فصمتت "أمة السلام" فتنهدت شيماء ومالت جانبا وأخذت مسبحتها وأغمضت عينيها ونامت وهي تسبِّح.

***

تواجدت رابعة مع شيماء كثيرا وخاصة مع سوء حالتها الصحية. كانت تحاول أن تخفف عليها ألمها بالحديث عن الذكريات الماضية التي جمعتهما فنامت شيماء من أثر الدواء فلم تعد تقوى على تحمل الألم، قامت رابعة فدثرتها باللحاف

وخرجت وأغلقت الباب، وهي تفكر بها كيف كانت وكيف أصبحت والحالة المرضية التي هي عليها فحمدت الله تعالى على صحتها. وقالت: رغم الحب الذي يحيط بك يا شيماء إلا أنه لم يحمكِ من المرض.

أخرجها من سرورها صوت عقبة قائلا: يبدو أن عين حسود أصابتها.

فنظرت إليه وتأملته فمنذ فترة طويلة لم تلتق به ولم تعلم أين كان مختفيا وقالت: من؟

- شيماء.

فنظرت إليه مستنكرة قائلة: حسد ومن سيحسدها؟

- أنت يا عزيزتي.

- ولماذا أحسدها؟ أنا أحسدها ومعي كل شيء.

فابتسم بتهكم: تسألين هذا السؤال؟ أ تكذبين عليَّ أم على نفسك؟

لم تجبه فأشاحت بوجهها بعيدا عنه فأكمل: يتعجب الغني أن رأى الكعكة بيد اليتيم.

فنظرت إليه قائلة بانفعال: بل أنت من تثير الاشمئزاز.

***

انصرفت عنه ومضت الأيام وحالة شيماء الصحية تسوء أكثر. رفضت العلاج ورفضت كل شيء. حاولت رابعة أن تقنعها بأنها ستتولى النفقات عليها وكذلك أرسل عقبة لمالك بأنه مستعد أن يتكفل بنفقات علاجها في الخارج.

حاولت "أمة السلام" إقناع شيماء وترجى مالك شيماء ولكن كبرياءها منعها أن توافق. أرادت الموت بكرامة بدل العيش بإهانة على نفقات الآخرين.

مضى شهر وهي على حالتها، فتألمت كثيرا فاستدعت مالك ورابعة وطلبت من "أمة السلام" وعقبة الحضور. فما أن رأتهم جميعا متواجدين قالت بصوت منخفض: أنا سأموت. فزع الجميع وحاولوا مواساتها فأخرستهم بحركة من يدها وقالت: لا تواسوني أنا ذاهبة إلى رب رحيم وأنا مشتاقة للذهاب إليه. فقط أريد أن توافقوني.

قالت أمة السلام: على ماذا؟

- أن يتزوج مالك من رابعة.

صدم عقبة وأراد الخروج من الغرفة. فأوقفته شيماء قائلة: عقبة عليك أن تبارك لهما فرابعة تحب مالكا وأظن مالك يحبها فأنا أعلم بذلك ولكنه يجيد التمثيل.نعم أعلم أنه يحبها منذ أن رآها أول مرة وهي كذلك.

فقال مالك بعصبية: هذا هذيان منك.

كان عقبة ينظر إلى رابعة ويراقب تعبيرات وجهها الذي توتر قليلا فلم تستحمل فخرجت من الغرفة تبكي فلحقها عقبة ووقف أمامها قائلا:

- أدموعك هذه دموع حزن عليها، أم دموع فرح لرحيلها؟

فصاحت قائلة: بالله عليك يا عقبة أهذا وقته؟ يكفيك سخرية مني وبعباد الله. أرجوك ابتعد عني ودعني أعيش حياتي.

تسأليني ذلك؟ هذا لأنك تريدين أن تتزوجي هذا الحقير. لا بأس تزوجيه وفي النهاية ستكونين لي وهذا وعد مني.

***

مضى يومان وأسلمت شيماء الروح. بكت رابعة كثيرا. لأول مرة تبكي لأجل غيرها. لأول مرة تشعر بالأسى لأجل إنسان لا يمت لها بصلة قرابة. لم تفكر بعرض شيماء، ووصيتها بل ظنت أن ذلك مجرد هذيان محتضر. فجاءتها "أمة السلام" قائلة وهما في البيت: هل ستنفذين وصية شيماء وتتزوجين من مالك؟

- لا أعرف حقيقة لا أظن أن شيماء كانت صادقة بل تريد أن تعرف شيئا ما.

- أنه يحبك وأنت تحبيه؟

- أظن ذلك

- وهل حدث ما أثار شكها؟

- لا مطلقا.

- أهذا أكيد؟

- نعم.

- وأنت؟

- ماذا بي؟

- ألا تحبينه؟

فقالت تحاول أن تخفي شيئا: لا أبدا، كيف لي أن أحبه وهو زوجها.

- وقبل؟

- قبل ماذا؟

- قبل أن يتزوجها.

- "أمة" أرجوك كفاك أسئلة.

- حسنا فإذا كانت صادقة النية بعرضها أي لمجرد أنها تنوي إسعادكما معا ولا شيء آخر وجاء مالك بجدية يعرض الزواج عليك فماذا ستجيبينه؟

- لا أعرف سأفكر بالأمر.

- وعقبة ماذا عنه؟

- تعلمين رأيه وقد سمح لي ولكنه هددني.

- بماذا؟

- بأنني سأكون له في النهاية.

- هذا مغرور.

- نعم صدقت.

- حسنا إن تزوجت بمالك أين ستسكنين؟

- كيف يعني أين سأسكن؟

ليس من المعقول أن تخرجي من بيتك وتذهبين إلى بيته.

- نعم صحيح.

- إذًا عليه أن يأتي للإقامة هنا مع طفلتيه.

أدركت رابعة أن شيماء أرادت أن تبتليها بزوجها وأطفالها، وكأنها أدركت ضمنيا أن رابعة هي السبب غير المباشر في مرضها. فكأنها تريد الانتقام منها بأن تتولى رابعة مسئولية أطفالها بالزواج من زوجها. فأخبرت "أمة السلام" ما يدور في خلجاتها.

فقالت أمة: هذا شيء يعنيك ولن يجبرك أحد على تنفيذ وصيتها.

فنظرت إليها رابعة قائلة: أصحيح أنك كنت تحبين عقبة وهو كذلك؟

صمتت أمة السلام: وكيف عرفت؟

- صراحة أمي أخبرتني.

- نعم كان ماضيًا وانتهى وأنا متزوجة الآن.

- حسنا وقبل زواجك ألم يحبك؟

- لا لم يحبني مطلقا. وأنا كنت أتوهم أنني أيضا أحبه. كنا مراهقين.

يا إلهي لا أعرف حقا هذا الرجل من يحب؟

- يحبك أنت يا عزيزتي.

- لا أظن فهو يحب نفسه.

- وأنت كذلك تحبين نفسك.

- كلنا أنانيون.

- المال والغنى يجعل الإنسان أحيانا كثيرة أنانيا يظن أن كل شيء خلق له.

***

أخذ مالك يفكر بوصية شيماء كثيرا. صدم منها مما أوصته بها. لماذا يا شيماء؟ سأل نفسه مرارا: لماذا فعلت ذلك بي وبأطفالك. لا لن أنفذ وصيتك.

كان يقول ذلك ثم يتراجع عندما ينظر إلى طفلتيه اللتين تحتاجان إلى رعاية. فالآن راتبه لوحده لن يكفيه على نفقاتهم والعيش حياة أفضل. بدأ بالتفكير برابعة وإعجابه بها حيث كان يشعر أن مشاعره لها حب حقيقي. في بعض الأحيان لم يتطور لوجود شيماء في حياته والآن شيماء قدمت له رابعة على طبق من ذهب ورابعة على ما يظهر عليها أنها شبه موافقة. تعجب يسأل نفسه:هل شيماء لاحظت إعجابه برابعة، أو لاحظت نظرات رابعة إليه. أو لأنها أرادت أن تضمن حياة كريمة لبناتها، فاقترحت أن تزوجه من رابعة. تنهد وظل مدة مشغول الفكر. وكان يرى رابعة أحيانا ويتجنب الاحتكاك بها وكان يلاحظ أنها تشيح بنظرها بعيدة عنه عندما تراه وتبتعد فلم يشأ مضايقتها. رغم ذلك لم تذهب عن خاطره فكانت تلح على فكره ووجدانه حتى ظل أياما لم يأته النوم بالتفكير بها ولحاجته لزوجة كرجل. فاتخذ قراره وتشجع ليفتح مع رابعة فكرة الزواج بها فطالما ابن عمها لم يمانع فإذًا عليه ألا يتأخر فلربما يغير رأيه بعدما يجده متقاعسا عنه، فرفع خط هاتفه بعد تردد واتصل برابعة وسألها أن يقابلها.

وافقت على اللقاء به رغم أنها لم تكن متحمسة كثيرا ولكن شعرت بأن هناك شيئًا يدفعها. ربما روح شيماء هي التي تقوم بذلك. التقت به في أحد

المطاعم ومن دون مقدمات سألها أن تتزوجه فسألته قائلة: رغبة منك أم تنفيذا لوصية شيماء؟

لم يجبها وهي أيضا لم تعرف بماذا تجيبه. ارتاحت لعدم إجابته عليها لكي لا تشعر بكذبه فإحدى الإجابتين ستكون كاذبة. تركته قائلة: حسنا سأفكر بعرضك.

وافقت على الزواج منه وأوصت "أمة السلام" أن تخبره بقرارها، وبعد أسبوع تم عقد القران وكان عقبة شاهدًا على الزواج. نظرت رابعة إلى عقبة وهو ينظر إليها بجمود فأخذت القلم وبيد مترددة وقعت على وثيقة الزواج. زغردت خالاتها، فانسحب عقبة وخرج من البيت.

وفي اليوم التالي انتقل مالك وطفلتاه إلى بيت رابعة وبقي عقبة فيه ولم يفارقه. وقال لمالك عندما وصل مع حاجياته: سأخبرك أمرًا يا مالك عليك أن لا تنسى نفسك وتنسى مكانتي هنا.

لم يقيما حفلا فقط. تناولا العشاء في البيت على ضوء الشموع وقد جهزت لهما إيفا جوًا مناسبًا. لم يتكلما كثيرا فقط بشئون الحياة. أخذ يقص عليها عن أسرته وحياته في عدن ليلطف الجو بينهما ويعتادا على بعض، فأخذت تسمعه وتهز رأسها ولا تبادله الحديث. أدرك أنها متعبة فصمت. ثم قامت بعدما أنهيا العشاء نظرت إليه قائلة: اعذرني سأبقى في غرفتي.

جفل مالك وتفاجأ من ردة فعلها ولكن لم يبد اعتراضا فشعر أنها ربما تحتاج إلى بعض الوقت لتتعود عليه وعلى وجوده في حياتها ثم قالت له: ستأخذك إيفا إلى غرفتك. ومشت إلى غرفتها.

قدمت إيفا إليه وأخذته إلى غرفته وأبقت طفلتيه في غرفة مجاورة له. انتظرها بصبر فهو يراها كل يوم تزداد جمالا وفي ذات الوقت تصبح أكثر برودة في مشاعرها. لم تعد تلك رابعة الجريئة الجامحة التي يعرفها التي لا تتوانى أبدا على التصريح عن مشاعرها مهما كان الموقف والظرف. حاول يوما أن يضمها إليه فابتعدت عنه بلطف قائلة: عفوا لا أستطع الآن.

مضت الأيام رتيبة عليهما. حاولت التأقلم في التعايش مع مالك كزوجين والتعود عليه ولكن لم تجد ما يحمسها عاطفيا بأن تسلم نفسها له طواعية كزوجة محبة.

فاتصلت بها "أمة السلام" من عمان وسألتها قائلة: طمئنيني عنك ما وضعك مع مالك؟

- لا أعلم حقا.

- كيف؟

- لم أشعر أنني أحبه ربما لم أحبه مطلقا.

- أما زلتما منفصلين؟

- نعم.

- وعقبة هل يعلم بذلك؟

- لا أدري ولكن تظاهرت أمامه بأني سعيدة حتى إنني قلت على مسمعه بنيتي للسفر لشهر العسل مع مالك. فابتسم لي بخبث ومشى.

- حسنا إلى متى ستظلين على هذه الحالة؟

- ربما السفر سيغير الحال.

قامت بإجراءات السفر وجهزت نفسها بتردد. حاولت أن تبدي سعادة زائفة لتقنع نفسها والجميع بأنها سعيدة وبقي عقبة يراقبها بكثب. فجاءها وهي تجلس في البهو وحيدة شاردة الذهن قائلا: لماذا أنت حزينة يا عزيزتي وهل تنويان السفر؟

- هذا لا يعنيك.

- كيف لا يعنيني وأنا أراك بهذه الصورة.

- أية صورة؟

- لن أقول شيئا.

- عقبة لِمَ لا تتزوج وتتركني لشأني؟

- لأني أنتظرك.

- ولكنني متزوجة الآن.

- أمتأكدة أنتِ؟

تركها وبقيت مصدومة لأنها عرفت قصده بأنها زوجة لمالك على الورق. ظلت تشعر بالحيرة وصعدت إلى الطابق الأعلى ومشت بين الغرف فدخلت غرفة والدتها ونامت على فراشها وشمت مخدتها وأخرجت دروعها وقربتها إليها وأخذت باستنشاقهم، فبكت حتى بلتهم ومسحت دموعها بهم. قامت وأرجعتهم مكانهم ثم اقتربت من الشرفة حينها سمعت صوت أحد ينزل إلى

المسبح، فأبعدت الستارة فوجدت الباب الزجاجي للشرفة مفتوحا، فأزاحت الباب الناموسي وخرجت ورأت عقبة يسبح فيه، فخفق قلبها له حتى إنها شعرت بالدوار فهي لم تكن المرة الأولى التي تراه يسبح، لكن لم يلفت اهتمامها مسبقا فراقبته. كانت تعلم مهارته في السباحة، فأخذت تتأمله بإعجاب، ثم أدركت نفسها ودخلت خوفا من أن يلحظها وأغلقت باب الشرفة وخرجت إلى غرفتها.

جلست إلى مكتبها وقلبت أوراق مذكراتها وفتحت صفحة جديدة وكتبت " كيف لم أدرك عشقك إلا الآن. وكيف كانت عيناي في غفوة عنك. كنت هنا، وأنا كنت هنا، لكن لم يكن معي قلبي الذي تهواه. وفي ساعة صحوة علمت ما يجول في حنايا وجدانك وما يحيط بك من هالات وما يسير في دمك من شغف. غلف القلب عشق ولوعة وافتتان. علمته متأخرا. لكن لم يمض الوقت بعد سأنتظرك وفي قلبي رجفة من الحب والأشواق " فاسترخت وفكرت أنها كم كانت مخطئة بحبها لمالك، وأنها أخطأت أكثر بالزواج منه، وارتكبت ذنبا بحسد شيماء على نعمتها. قامت إلى فراشها واستلقت وتقلبت عليه كتقلب الجمر على النار وبكت كثيرا حتى تورمت عيناها، ثم قامت ونزلت وبحثت عن عقبة، فلم تجده فاسترخت وانتظرت عودة مالك من عمله.

رأته يدخل فطلبت منه أن تتحدث معه على انفراد، فأغلقت عليهما باب غرفة الطعام، وجلست على أحد الكراسي، وسحب لنفسه كرسيا، فسألته أن يطلقها لأن كليهما في الأصل لا يصلحان لبعض. لم يستطع أن يقول شيئا لأنه أدرك حقيقة كلامها، فهو أيضا اكتشف أنه لم يكن يحبها بل كان مأخوذا بجمالها. أظهرت له ورقة مصرفية، وسألته أن يأخذها ويصرفها.

فقال وهو يقوم من كرسيه معتذرا: لا سأطلق حالا ولا أريد شيئا. طلقها وذهب وأخذ أغراضه وأطفاله وخرج من البيت. وانتظرت قدوم عقبة مليا وهي تقف على نافذتها وبعد ساعتين وجدته يدخل بسيارته ساحة البيت ونزل منها واتجه نحو البيت ودخل ولم يجدأثرا لمالك أو لرابعة، ثم وجد رابعة تنزل من غرفتها مبتسمة قائلة:

- لولا العادات والتقاليد لكنت طلبت منك أن تأتي بالشيخ ليعقد قراننا الآن.

فابتسم قائلا بانبساط: هل طلقك، وبهذه السرعة؟ كنت أظن أنني سأصبر أكثر وإن طال صبري سأخرج مسدسي لأقتله.

فابتسمت له قائلة: أنا التي طلبت منه الطلاق.

- ولماذا أنت؟

- لأني لم أحبه.

- نعم وهل علمت الآن أنك لا تحبينه يا مجنونة؟

ابتسمت بهدوء ولم ترد عليه فجلس بجانبها قائلا: والآن كم سننتظر حتى يتم زواجنا.

- ثلاثة أشهر بحكم العادات والتقاليد.

- لا لن أنتظر هذه المدة.

- إذا؟

سنقدم التماسًا إلى القاضي وهناك شهود على ذلك ومنهم مالك وسنشرح له.

- وطلاقك سيسمى فسخًا وليس طلاقًا يتبعه عدة.

- سيتكلم عنا الجميع.

- لا يهم معي مسدسي من يقول عنك كلمة سأقتله.

ضحكت فضمها إليه لأول مرة منذ اشتهى ذلك حينما رآها أول مرة وهي تنزل من الدرج. أدركت أنها كانت تحبه وهو كذلك منذ أول لقاء جمع بينهما.

تمت بحمد الله

المحتويات

الموضـوع	الصفحة

رقم الإيداع	٣٦٥٨ / ٢٠١٣
I.S.B.N الترقيم الدولى	978 - 977-10 -2853-6



المؤلفة

الرؤية النقدية

تَنفتحُ هذه الروايةُ على أوراق متلونةٍ تمسُّ شرائحَ متينة ومتعمقة... متأصلة في جذور الروائية شذى الخطيب. إذ تَعكسُ بكل دقةٍ وجماليةٍ العديدَ من المرايا التي تتفاعَلُ فيما بينها، والصُّور التي تكشفُ عنِ المكنُونِ التراثيِّ الذي يتربَعُ عليهِ المجتمعُ اليمني .

"أوراقُ رابعة" سرديةٌ متنوعةٌ ومشوقةٌ تُبرز الترفَ اليمني من ضوابطَ وعاداتٍ وتقاليدَ ومقدساتٍ....تشكَّلَت كسُلطةٍ متعاليةٍ يُعزَى إليهَا قانونُ المجتمع أو العرف بأتم المعنَى.

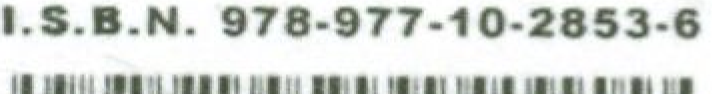
وهو ماَ تلخِّصُهُ مجرياتُ الروايةِ وفقَ ثنائيات تارةً: كالجريمةِ والعقابِ، الحُبِّ والكرهِ، العشقِ والخيانةِ، الثراءِ والفقرِ، الإحسانِ والإساءةِ... وتارةً أخرَى وفْقَ متلازماتِ الحياةِ من: طمع وجشع، حسدٍ وانتهازيةٍ، حقدٍ وضعفٍ...وكلها مرايا وأوراق ملونةٌ ومتسايرةٌ في دَائرةِ الوجودِ الإنساني.

ها هي شذى تطرح "رابعة" كورقةٍ رابحةٍ في فضاءِ الروايةِ، بما يستوعبهُ هذا العالم الرَّحْبُ مِن تقنياتٍ وفنياتٍ يستجيبُ لها طواعيةً... مُصوِّرَةً المجتمعَ اليمنيّ جنوبه بشماله، وتمازجه الجغرافي برؤيةٍ واحدةٍ متكاملةٍ في "أوراق" ترُومُ المَرابَحَةَ الفنيةَ بتقنيةٍ إبداعيةٍ مُتَنَاهِيَةٍ في دَفْع حَركيةِ الزَّمَنِ والأحداثِ؛ ما جَعَلَ فضَاءَ النَّص يتوزَّعُ بحُبُكٍ مُتواشـ... متناسقٍ ومنسجم... يدخل عبْرَهُ المتلقِّي البَيْتَ اليَمَني بـ... وسلاسَةٍ، متصفحًا أوراق رابعة الملوَّنَةَ بماضيهَا وحاضِر... أَدَقَّ التَّفَاصيلِ التِّي صَقَلَتْ هذِهِ الشَّخصِيةَ القويَّةَ الطَمُوحَـ...

د. وليد ...

أستاذ النقد ...

جامعة سطيف الجزائر



I.S.B.N. 978-977-10-2853-6



9771081951

تطلب جميع منشوراتنا من وكيلنا الوحيد بالكويت والجزائر

دار الكتاب الحديث